1

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

هُوَ اللَّهُ

[الحشر: 22]



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية

السلسلة: موازين القرآن.

اسم الكتاب: هو الله - كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟

رقم الكتاب في السلسلة: الأول.

الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية.

هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف - غير تجاري - منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).

يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه وتوزيعه وإعادة نشره وطباعته للأغراض غير التجارية دون إذن مسبق، بشرط المحافظة على نسبته إلى أصحابه، وعدم نشر نسخ معدلة أو مترجمة منه.

ويرحب المركز بطلبات طباعة هذا الكتاب ونشره لأغراض تجارية، شريطة الحصول على إذن كتابي مسبق من المركز، مع المحافظة على النص كاملًا دون تعديل أو حذف أو إضافة، ونسبته إلى أصحابه، ما لم يُتفق كتابةً على خلاف ذلك.

رابط الترخيص https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:

https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/ho-allh-2

إعداد السلسلة

مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية

الإشراف العلمي على المركز

أ.د. عبدالله بن مبارك آل سيف

الفريق العلمي للمركز

د. عبدالله سالم باهمام

د. صهيب لموح

د. شادية عبدالله بابكر

إسلام موسى

عادل بافرج

المراجعة والتحكيم العلمي

يراجع المركز إصداراته بمحكمين خارجيين عند الحاجة.

كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية.

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

هو الله | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟ — هذا الكتاب

- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

يتجه هذا الكتاب إلى أصلٍ تتفرع عنه العبادة كلها: أن يعرف العبد ربَّه كما عرّف الله بنفسه في كتابه، وكما صح عن رسوله ﷺ، لا بوصف المعرفة قائمةً من الأسماء والمعلومات، بل علمًا يصل إلى القلب فيعيد ترتيب الخوف والرجاء والمحبة والتوكل والافتقار. ومن هنا يحمل الكتاب سؤالًا يتجاوز عدد الأسماء التي يحفظها القارئ إلى أثر هذه المعرفة في حياته: من هو الله في قلبه حين تتكاثر الأسباب، وحين يمنع القدر أو يعطي، وحين يذنب أو يدعو أو يخلو؟

يبدأ الطريق بسؤال لا غنى عنه: من أين نعرف ربنا؟ ثم تُقرأ الأسماء والصفات داخل سياقات الوحي، حيث تتصل المعرفة بالدعاء والعبادة والقدر والرزق والتوبة والمراقبة والرجوع إلى الله؛ فلا يبقى الاسم تعريفًا ذهنيًا، بل يصير نورًا يرى به العبد نفسه والعالم وما يجري عليه.

ولا يقصد الكتاب أن يكون موسوعة مستوعبة لجميع الأسماء والصفات، ولا بديلًا عن الكتب العلمية المتخصصة في العقيدة؛ وإنما يريد أن تنقلب صحة المعلومة عبوديةً في القلب، وأن تصير معرفة النص رؤيةً يرى بها العبد نفسه والعالم والقدر. فالغاية علمٌ بالله يثمر تعظيمًا ومحبةً وخشيةً ورجاءً وعملًا، لا معلومات يمر بها القارئ ثم يبقى قلبه على حاله.

محتويات الكتاب

مقدمة 1
مِنْهُ نَعْرِفُهُ 5
الله أعلم بنفسه 5
العقل والفطرة والكون: دلائل وشهود 8
كيف يعرّف السياق بالله؟ 12
هُوَ اللَّهُ 16
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 16
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ 20
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 25
هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ 30
رَبُّ الْعَالَمِينَ 37
اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ 37
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ 40
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ 44
مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟ 47
وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ 52
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ 56
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ 56
أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ 59
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا 63
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 67
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ 71
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى 72
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ 75
إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى 78
فَإِنِّي قَرِيبٌ 80
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ 83
(كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) 84
(لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ) 86
(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ) 88
(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) 90
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ 93
(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) 94
(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) 96
(إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) 98
(وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) 100
(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) 102
لَهُ الْمُلْكُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ 105
(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ) 106
(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ) 108
(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ) 110
(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) 113

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ 115
(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)..... 116
(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) 118
(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)..... 121
أن تعرف من تعبد 123
الملاحق:
كيف تواصل معرفة الله مع القرآن؟..... 125
دليل الأحوال: أين تقرأ حين...؟..... 127
دليل الأسماء والصفات والأفعال ومواضعها 132
أولًا: الأسماء والأوصاف الاسمية المركزية..... 132
ثانيًا: الصفات والأوصاف الثابتة البارزة..... 138
ثالثًا: الأفعال الإلهية المركزية..... 142

مقدمة

قد يقول العبد في صلاته: الله أكبر، ثم يخرج منها وفي قلبه شيء أكبر من الله: خوفٌ من إنسان، أو تعلقٌ بسبب، أو رهبةٌ من مستقبل، أو

شهوةٌ لا يملك أمامها نفسه. وقد يقرأ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم تحيط به خطيئته فيظن أن باب الرحمة قد أُغلق دونه. ويؤمن أن الله حكيم، فإذا جاءه القدر على غير ما أحب اضطرب قلبه، كأن الحكمة لا تكون إلا فيما وافق اختياره. ويعلم أن الله سميع بصير، ثم يخلو بمعصيته كأن الأبواب إذا أغلقت حجبته عن نظر ربه.

ليس معنى هذا أن العبد لا يعرف الله، ولكنه قد يعرف عنه ما لم يبلغ بعدُ الموضع الذي يحكم خوفه ورجاءه وحبه واختياره. قد يحفظ الأسماء، ويحسن شرح معانيها، ويستدل لها، ثم تبقى بين ما يعلمه وما يعيشه مسافة لا تظهر في مجالس الكلام، وإنما تكشفها لحظة خوف، أو خلوة، أو فتنة، أو دعاء تأخرت إجابته، أو نعمة أقبلت فامتلأت بها النفس ونسيت المنعم.

وليس المقصود أن يعرف العبد من أخبار ربه ما يملأ ذهنه ثم يبقى قلبه على حاله. إنما يُراد له أن يعرف من يعبد حتى يحبه لكماله وإحسانه، ويهابه لجلاله، ويرجوه لرحمته، ويفتقر إليه في سره وعلانيته. وكل معرفة لا تزيد تعلق القلب بالله، ولا تصحح عبادةً أو اختيارًا، ما زالت دون الثمرة التي أنزل الوحي ليصنعها.

ومن هنا يبدأ هذا الكتاب.

إن السؤال الذي يحمله ليس: كم اسمًا لله تعرف؟ ولا: كم تعريفًا تستطيع أن تستحضره؟ وإنما: من هو الله في قلبك حين تواجه الحياة؟

من هو الله حين تتكاثر عليك الأسباب، ثم تعجز كلها عن إنقاذك؟ ومن هو حين يفتح لك من الدنيا ما تحب؟ ومن هو حين يمنع، أو يؤخر، أو يبتلي؟ ماذا تصنع معرفتك بأنه الرحمن حين تذنب؟ وبأنه الحكيم حين لا تفهم؟ وبأنه مالك الملك حين تقف حاجتك عند باب مخلوق؟ وبأنه السميع البصير حين تخلو؟ وبأنه مالك يوم الدين حين تتعارض لذة عاجلة مع رضاه؟

ليست المعرفة بالله بابًا من أبواب العلم يستغني عنه من تخصص في غيره، ولا مرحلة أولى يتجاوزها من تقدم في الطلب. هي أصل الدين، وروح العبادة، وحياة القلب. وكل علم لا يقود إلى الله يوشك أن يتحول

في صاحبه إلى حجة عليه، وكل عبادة لا تقوم على معرفة المعبود قد يدخلها الجفاف أو الاضطراب أو الغلو. وبقدر ما يعرف العبد ربه، يعرف كيف يحبه ويخشاه، وكيف يرجوه ويتوكل عليه، وكيف يعبده في الرخاء والبلاء، وكيف يعود إليه إذا أذنب، وكيف يثبت حين تتغير الوجوه والأحوال.

ولهذا لم يعرّف القرآن بالله في صفحات منعزلة عن الحياة. لم يذكر أسماءه وصفاته لتبقى ألفاظًا مجردة، بل جاء بها في قلب الخوف والرجاء، والخلق والرزق، والذنب والتوبة، والدعاء والإجابة، والنصر والهزيمة، والحياة والموت، والدنيا والآخرة.

يقول الله لعباده إنه الغفور الرحيم حين يدعو المذنبين إلى الرجوع. ويعرّفهم بأنه الحي القيوم حين تتعلق القلوب بأحياء يموتون، وقوى تضعف، وأسباب تزول. ويذكر علمه وسمعه وبصره حين تختفي الأعمال عن الخلق، ولا يخفى عليه منها شيء. ويجمع العزة بالحكمة حتى لا يتوهم القلب قوةً عمياء، ويجمع المغفرة بالعزة حتى لا تتحول الرحمة إلى أمن من حسابه. ويذكر ملكه حين تضخم الدنيا سلطان البشر، ويذكر يوم الدين حين يبدو أن بعض الحقوق قد ضاعت بلا جزاء.

فالقرآن لا يقدم لك معلومات عن إله بعيد؛ إنه يعرّفك بربك الذي خلقك، ويرزقك، ويسمعك، ويدبر أمرك، ويفرح بتوبتك، ويعلم ضعفك، ويبتليك، ويهديك، ثم إليه مرجعك ومصيرك.

وحين يتلقى القلب هذا التعريف كما أنزله الله، لا تبقى الأسماء معلومات يمر بها، بل تصير أبواب عبودية. يصبح الدعاء مناجاةً لرب سميع قريب، والتوبة رجوعًا إلى غفور يقبل التوبة عن عباده، والتوكل عملًا بالأسباب مع افتقار القلب إلى من خلقها وأقدرها. وتصبح الخشية هيبةً قائمة على المعرفة لا فزعًا يطرد من الباب، وتقوم المحبة على معرفة كمال الله وإحسانه لا على موافقة الأقدار للهوى، ويكون الأنس به سكونًا يحفظ القلب من التعلق المطلق بالخلق من غير أن يخرجه من الأدب والعبودية.

هذا هو العلم بالله الذي يطلبه الكتاب: علمٌ يزيد الله في القلب تعظيمًا، ويعرّف العبد بكمال ربه حتى يحبه ويعبده، لا أن يجعله متكلمًا عنه فحسب؛ علمٌ يورث محبةً لا تمحو الهيبة، ورجاءً لا يصنع الغرور، وخشيةً لا تفتح باب القنوط، وافتقارًا لا يعطل العمل، وأنسًا لا يلغي الأدب والعبودية.

ولا سبيل إلى هذا العلم إلا من الطريق الذي عرّف الله به نفسه: كتابه، وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن هنا ليس شاهدًا يُضاف بعد اكتمال الفكرة، بل هو الذي ينشئها ويحدد مداها ويضبط أثرها. تُقرأ الأسماء في سياقاتها، وتُنظر الصفة مع ما أحاط بها من وعد ووعيد، وعبادة ودعاء، وخلق وتدبير. ولا تُقتطع الآية من بنائها لتؤدي معنى أراده الكاتب قبل أن ينظر فيها؛ بل يُنصت إلى السياق حتى يقود هو المعرفة.

والسنة وحيٌ يعرّف بالله كما يعرّف القرآن، ويكشف من معاني أسمائه وصفاته وأفعاله ما قد لا يكتمل أثر المعرفة بدونه. نتلقاها كما جاءت، نؤمن بما دلت عليه، وننزّه الله عن مماثلة خلقه، فلا نكيّف صفاته، ولا نمثلها، ولا نعطلها.

ولا يزعم الكتاب استيعاب جميع أسماء الله وصفاته، ولا يغني عن الكتب العلمية المتخصصة في العقيدة وشروح الأسماء الحسنى، ولا يقصد استقصاء الخلافات والردود والمصطلحات. المقصود أن تنتقل المعرفة من صحة المعلومة إلى عبودية القلب، ومن التعريف إلى الأثر.

ستبدأ الرحلة من الكلمات التي يرددها المسلم كل يوم، وربما لم يعد يشعر من كثرة تكرارها بعظمة ما تحمله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. ثم نقترب من آيات تعرّف بالله حيًّا قيومًا، عليمًا سميعًا بصيرًا، رحمنًا رحيمًا، غفورًا ودودًا، عزيزًا حكيمًا، فعالًا لما يريد، له الملك وإليه يرجع الأمر كله. وفي آخر الطريق لن يكون السؤال: ماذا أضفت إلى معلوماتك؟ بل: ماذا صنعت هذه المعرفة في تعظيمك لله، وظنك به، وخشيتك منه، ومحبتك له، وعبادتك إياه؟

قد تجد في هذه الصفحات آيات قرأتها من قبل، وأحاديث سمعتها مرارًا. لكن الألفة بالنص لا تعني أن القلب استوفى هدايته. قد تمر الآية على الإنسان أعوامًا، ثم تأتي ساعة يفتح الله له فيها من معناها ما يعيد ترتيب حياته. وليس المقصود أن تبحث عن الغريب دائمًا؛ بل أن تعود إلى كلام الله بقلب يعترف أنه ما زال محتاجًا إلى أن يتعلم من ربه.

فلا تقرأ هذا الكتاب قراءة من يريد إنهاء الصفحات. اقرأه قراءة من يبحث عن نفسه بين الآيات. توقف حيث تجد قلبك، ولا تعجل بالانتقال عن معنى كشف لك خللًا أو فتح لك بابًا. اجعل ما تقرؤه مادةً لدعائك وصلاتك ومحاسبتك، واسأل الله قبل العلم وبعده أن يعرّفك به؛ فإن العبد لا يصل إلى معرفة ربه بذكائه وحده، بل بهداية من الله وفضل.

وقد لا تخرج من كل مقطع بشعور مرتفع، وليس هذا هو المقياس. قد تكون ثمرة المعرفة قرارًا خفيًا لا يراه أحد: معصية تتركها في خلوة، أو مظلمة تردها، أو دعاء تعود إليه بعد قنوط، أو اعتراضًا تكفه عن قلبك، أو خوفًا من مخلوق تضعه في حجمه، أو سجدة تطول لأنك عرفت أمام من سجدت.

هذا الكتاب لا يعدك بمشاعر سريعة، لكنه يدعوك إلى طريق إذا صدقت فيه، لم تعد تقرأ قلبك والعالم والقدر كما كنت تقرؤها من قبل. ستكتشف أن حاجتك إلى معرفة الله ليست أقل في أوقات القوة منها في أوقات الضعف؛ فأنت تحتاج إليه لتشكره حين يعطي، كما تحتاج إليه لتصبر حين يمنع. وتحتاج إليه ليحفظك من نفسك حين تنجح، كما تحتاج إليه ليرحم ضعفك ويعينك حين تنكسر.

إن أعظم ما يخرج به الإنسان من عمره ليس أن يعرف أشياء كثيرة عن العالم، ثم يلقى الله غريب القلب عنه؛ وإنما أن يمضي وهو يزداد معرفةً بربه، فيحبه لما عرف من كماله وجلاله وإحسانه، حتى يكون الله أحب إليه من كل محبوب، وأعظم في قلبه من كل عظيم، وأرجى عنده من كل باب.

والطريق إلى ذلك يبدأ من تعريف الله بنفسه.

يبدأ من آيات ربما قلتها آلاف المرات، لكنك الآن تدخل إليها بسؤال جديد، وقلب يرجو ألا يخرج منها كما دخل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

مِنْهُ نَعْرِفُهُ

قبل أن يسأل العبد: ما أسماء الله؟ وما صفاته؟ ينبغي أن يثبت سؤالًا أسبق: من أين أعرف ربي، وبأي ميزان أزن ما يقال عنه؟ فهذا الباب ليس كغيره من أبواب المعرفة. نحن نعرف أشياء كثيرة بالمشاهدة والتجربة والقياس، أما الله سبحانه فغيب عن أبصارنا، لا تحيط به عقولنا، ولا يبلغ الخيال كنه ذاته ولا كيفية صفاته. ولو تُرك كل إنسان لما يتصوره أو يستحسنه، لصنع كل قلب صورةً لربه تشبه حاجاته ومخاوفه وثقافته، ثم عبد تصوره وهو يظن أنه عرف الله.

لهذا كانت أول نعمة في طريق المعرفة أن الله لم يكل عباده إلى ظنونهم؛ عرّفهم بنفسه، وأرسل رسله، وأنزل كتبه، وأقام في الأنفس والآفاق من الدلائل ما يصدق الوحي ويوقظ الفطرة. فلا تبدأ المعرفة من فراغ، ولا من جرأة العقل على الغيب، بل من إصغاء العبد لمن هو أعلم بنفسه وأصدق قيلًا.

ولا يعني هذا أن يطفئ الإنسان عقله عند باب الوحي. العقل هو الذي يفهم الخطاب، ويميز الدليل، ويربط بين الآيات، ويدرك استحالة التناقض، ويعرف أن المخلوق لا يكون خالقًا لنفسه. لكن العقل إذا عرف قدره لم يطالب أن يكون هو المتكلم عن الغيب والمخبر بتفاصيله. يستعمل نوره في موضعه، ويقف عند الحد الذي لا يبلغه إلا خبر الله.

المقصود هنا تثبيت ميزان التلقي: أن يميّز العبد المصدر من الدليل، والخبر الغيبي من الاستنتاج، وأن يقرأ الاسم والصفة والفعل داخل السياق الذي أنزله الله فيه؛ من غير أن يتحول الكلام إلى استعراض لنظرية المعرفة أو تاريخ المدارس والمصطلحات، ولا إلى استيفاء لبراهين وجود الله وشبهات الإلحاد.

الله أعلم بنفسه

أصل هذا الباب كلمة تقطع التردد: الله أعلم بنفسه من كل خلقه. قال تعالى: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 140]. كان السؤال في سياق رد دعوى لا تقوم على علم، لكنه يؤسس أدبًا عامًا: إذا جاء خبر الله عن نفسه، لم يملك المخلوق أن يقدم عليه ظنه، ولا أن يصف ربه بما لم يأذن به، ولا أن يرد النص لأن المعنى لم يدخل في الصورة التي ألفها.

والله سبحانه يعلم، والخلق لا يحيطون. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110]. فيستطيع العبد أن يعرف ما عرّفه الله به، ويؤمن بما أثبته لنفسه، لكنه لا يحول هذه المعرفة إلى دعوى إحاطة. كلما ازداد علمًا، ازداد إدراكًا للفارق بين علم الخالق وعلم المخلوق، وبين حقيقة الصفة التي أخبر بها وكيفيتها التي لم يخبر بها.

من هنا يبدأ التلقي: لا نسأل أولًا ماذا يليق في تصورنا، بل ماذا قال الله؟ ولا نسأل كيف يمكن أن تكون الصفة على قياس ما نعرف، بل ماذا أثبت النص وما نفى؟ وحين يعجز الخيال عن تصور كيفية تليق بالله، لا يكون عجزه حجة على نفي الحقيقة؛ فالخيال لا يعمل إلا بما شاهده أو ركبه من مشاهداته، والله ليس كمثله شيء.

وقد جمع القرآن في آية واحدة أصل الإثبات والتنزيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]. نفى المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر. فلم يجعل التنزيه محوًا للصفات، ولم يجعل الإثبات تشبيهًا بالمخلوقات. من عطّل ما أثبته الله بحجة التنزيه لم يقف عند الآية، ومن شبّه صفاته بصفات الخلق لم يقف عندها أيضًا. وطريقها أن نثبت ما دل عليه النص من المعنى الحق على الوجه اللائق بجلاله، ونوكل علم كيفية الصفة إلى الله؛ إذ لم يطلعنا عليها.

وهذه القاعدة ليست صيغة عقدية باردة؛ إنها حماية للقلب. فمن شبّه الله بخلقه ضاق تصوره بحدود المخلوق: ظن أن كثرة الداعين تشغله، أو أن بعد المسافة يحجب السماع، أو أن المغفرة تنقص الملك، أو أن العلم بالجزئيات يشبه جمع المعلومات. ومن فرّغ نصوص الأسماء والصفات من معانيها حُرم ما تبنيه في القلب من دعاء ومحبة وخشية ومراقبة. أما الوحي فيعرّف العبد برب سميع بصير، رحيم عزيز، قريب عليم، على وجه لا يماثل فيه أحدًا.

وقد جعل الله الوحي طريق الإنذار والهداية، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: 45] فالرسول لا يأتي بتصور بشري عن الله ثم يطلب من الناس تبنيه؛ يبلغ ما أوحي إليه. وحاكمية القرآن أعمق من كثرة الاستشهاد به: ليس زينة توضع بعد اكتمال الفكرة، بل منه تنشأ الفكرة، وبه يضبط مداها، وعند حدوده يقف الكاتب والقارئ.

والقرآن لا يعرف بالله من خلال قائمة أسماء معزولة فقط. يعرف به في الخلق والرزق، وفي الدعاء والذنب، وفي التشريع والقدر، وفي قصة المستضعف والطاغية، وفي الموت والرجوع. قد يأتي الاسم جوابًا عن خوف، أو حجة على مشرك، أو فتحًا لتائب، أو تهديدًا لظالم، أو تعليلًا لحكم. لذلك لا يكفي أن يصح معنى الاسم في المعجم؛ ينبغي أن يُرى وهو يعمل في الخطاب.

والسنة الصحيحة وحي وحجة، وليست مجرد أمثلة تربوية نلحقها بما قررناه من القرآن. قال تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]. فما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في أسماء الله وصفاته وأفعاله وحقوقه يُتلقى بالإيمان، كما يُتلقى القرآن، مع بقاء القرآن الأصل الحاكم الذي تُرد إليه المعاني.

وبيّن الله أن من وظيفة الرسول البيان، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]. فقد تفسر السنة آية، وتبين مجملًا، وتعين صورة العبادة، وقد تنشئ خبرًا صحيحًا عن الله لم يرد لفظه في الموضع القرآني الذي نقرؤه. ولهذا لا يُرد الحديث الصحيح لأنه لم يوافق اختصارًا سابقًا للمعنى، ولا يُستعمل حديث ضعيف ليحمل أصلًا في العلم بالله.

والطاعة هنا ليست انتقائية. قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7]. فإذا ثبت اللفظ والمصدر، لم يكن موقف العبد أن يزن الوحي بذوقه، بل أن يفهمه على وجهه، ويجمعه إلى النصوص الأخرى، ويرد المتشابه إلى المحكم. أما ما لم يثبت، فلا يصح أن ننسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو رقّت عبارته وأعجبت النفوس.

ويأتي بعد الوحي فهم اللغة والسياق والتفسير المعتبر وأقوال السلف. أنزل الله القرآن ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 195]، فلا يُفهم اللفظ بمعزل عن لسان العرب، ولا تُنتزع إمكانية لغوية بعيدة لتعارض بها دلالة السياق. واللغة خادمة للوحي، تكشف دلالته، لكنها لا تمنح القارئ حق اختراع اسم لله لم يسم به نفسه.

ولأقوال الصحابة والتابعين وأئمة التفسير وزنها؛ لأنهم أقرب إلى التنزيل ولسانه ومقاصده، ولأن كثيرًا من الانحراف يبدأ حين يقرأ المتأخر النص كأنه نزل اليوم بلا ميراث فهم. لا يعني ذلك عصمة كل قول بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنه يمنع الانفراد الجريء بمعنى لم يعرفه أهل العلم، ويجعل الخلاف المعتبر موضع تثبت لا موضع انتقاء لما يوافق الهوى.

ومن الأدب الواجب في هذا الباب ألا يسمى الله إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180]. فالأسماء ليست مساحة مفتوحة ليشتق الإنسان منها ما يشاء لمجرد أن المعنى حسن في ظنه. وقد

يخبر النص عن فعل لله أو وصف في سياق، ولا يلزم أن يشتق منه اسم مطلق؛ لأن باب الأسماء توقيف وتعظيم، لا صناعة لغوية.

وهنا يفيد التمييز بين الاسم والصفة والفعل من غير استغراق في الاصطلاح. الاسم يدل على الله وعلى كمال ثابت له؛ والصفة معنى كمال أثبته الوحي؛ والفعل يتعلق بمشيئته وحكمته كما أخبر. وهذا التمييز يمنع أن نجعل كل فعل اسمًا، أو أن نفصل الأسماء عن معانيها، أو أن نقرأ الأفعال كأحداث بلا فاعل حكيم.

كما ينبغي ألا تتحول التقسيمات العقدية الموروثة إلى قوالب حاكمة على ألفاظ القرآن. هي أدوات نافعة في الجمع والتعليم والرد، لكن القرآن أوسع حركةً من أن يقرأ فقط من خلال عناوين مدرسية سابقة. قد يجمع في آية واحدة الخلق والملك والعبادة والحكم والجزاء، والمطلوب أن نتبع بناءه، ثم نستفيد من التقسيمات في الضبط، لا أن نمزق المقطع حتى يوافق جدولًا أعددناه قبل القراءة.

والوقوف عند النص لا يعني الاقتصار على ترديد ألفاظه بلا فهم. النص يدل بمنطوقه وسياقه ولوازمه الصحيحة. فإذا قال إن الله سميع، فهمنا كمال سمعه وأنه لا يخفى عليه صوت؛ وإذا قال إنه حكيم، نفينا العبث عن فعله. لكننا نفرق بين معنى دل عليه النص دلالة بينة، وبين تأمل محتمل أو تطبيق معاصر. الأول يُنسب إلى دلالة الوحي، والثاني يقدم بوصفه فهمًا واجتهادًا قابلًا للمراجعة.

هذه الرتبة تحرر العبد من طرفين: من عقل يتقدم على الله فيقول لا أقبل إلا ما تصورت كيفيته، ومن تقليد خامد يردد العبارات ولا يفقهها. يتلقى الوحي بتسليم، ويفهمه بعقل، ويرجع في مشكله إلى العلم، ويعرف أن شرف عقله في أن يهتدي بكلام ربه، لا في أن ينازعه حق التعريف بنفسه.

العقل والفطرة والكون: دلائل وشهود

إذا كان الوحي هو المصدر الذي يخبرنا بتفاصيل الغيب، فما موضع العقل والفطرة والكون؟ موضعها عظيم، لكن العظمة لا تعني أن تؤدي الوظيفة نفسها. بها يعرف الإنسان صدق الدليل، ويستيقظ إلى وجود الخالق وكماله، ويفهم خطاب الوحي، ويرى آياته في نفسه والعالم. لكنها لا تستقل بتسمية ما لم يسمه الله، ولا بوصف كيفية صفاته، ولا بتحديد ما يحب ويبغض من غير خبر الشرع.

القرآن نفسه يخاطب العقل ويقيم عليه الحجة. قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 35-36]. أسئلة قليلة تهدم احتمالات باطلة: لم يأت الإنسان من غير موجد، ولم يخلق نفسه، ولم يخلق السماوات والأرض. العقل الصريح يدرك أن الحادث المفتقر لا يفسر وجوده بنفسه، وأن هذا النظام لا يقوم بلا خالق عليم قدير.

فالعقل ليس خصمًا للإيمان، بل من أعظم طرق إدراك الحجة. يعرف امتناع اجتماع النقيضين، ويميز بين الخالق والمخلوق، ويدرك أن الكمال أولى بالخالق من النقص. وبه يُفهم الأمر والنهي، ويصح التكليف، وتُجمع النصوص. لكن هذا العقل نفسه محدود؛ يعرف أشياء ويجهل أخرى، ويخطئ إذا نقصت المقدمات أو غلب الهوى أو أُخذت صورة مألوفة على أنها حد الحقيقة.

حد العقل في الغيب يشبه حد الحواس في مجالاتها. العين ترى ولا تسمع، والأذن تسمع ولا ترى؛ وليس عجز العين عن سماع الصوت دليلًا على أن الصوت غير موجود. وكذلك العقل يدرك وجود الله وكثيرًا من دلائل كماله، لكنه لا يستقل بمعرفة تفاصيل ما وراء الحس، ولا بكيفية الصفات. وحين يأتيه الخبر الصادق بما لا يحيله، وظيفته أن يفهم ويصدق، لا أن يرده لأنه لم يسبق له أن شاهده.

وقد يسأل العقل: كيف أصدق خبرًا لا أحيط بكيفيته؟ وهو يفعل ذلك في أشياء كثيرة من عالمه. يعرف الإنسان أن له روحًا، ولا يحيط بكنهها؛ ويعرف آثار الجاذبية والوعي والزمن، وتبقى حقائقها أوسع من تصوره. فإذا كان عجزه عن الكيفية لا يبطل حقائق المخلوقات، فكيف يجعل عجزه عن كيفية صفات الخالق حجة على نفيها؟

والفطرة شاهد آخر. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ». صحيح البخاري (1358)، وصحيح مسلم (2658).

في الإنسان استعداد لمعرفة ربه، وافتقار يظهر حين تسقط الأقنعة، ونفور أصيل من أن يكون الوجود بلا معنى ولا خالق. لكن الفطرة قد تُغطى ولا تُمحى، وقد تختلط بعوائد البيئة والشهوة والكبر. لذلك لا يصح أن يجعل كل إنسان شعوره الخاص وحيًا داخليًا معصومًا. الفطرة تستجيب للحق وتأنس به، والوحي يصححها ويوقظها ويبين لها ما لا تعرفه تفصيلًا.

قد يشعر إنسان براحة نحو فكرة باطلة لأنها توافق هواه، ويشعر آخر بثقل تجاه حكم حق لأنه يصادم عادته. الشعور وحده لا يحكم على الله ولا على شرعه. اللذة الروحية، والمنام، والانقباض، والإلهام الشخصي قد تكون أحوالًا ينتفع بها صاحبها في المباح، لكنها لا تثبت اسمًا لله، ولا تنسخ حكمًا، ولا تجعل ما لم يأت به الوحي دينًا.

أما الكون فهو كتاب آيات، لا كتاب أسماء مستقل. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]، وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي

﴿أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 20-21]. كل انتظام ودقة وحياة وتنوع يشهد لعلم الخالق وقدرته وحكمته.

والقرآن لا يدعو إلى نظرة سطحية تمر على العالم بلا تدبر. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]. ثم وصفهم بالذكر والتفكر، فاجتمع الوحي والنظر: يذكرون الله، وينظرون في خلقه، وينتهون إلى تنزيهه وطلب النجاة، لا إلى الإعجاب بالنظام وحده.

لكن الكون لا يتكلم وحده بكل التفاصيل. قد يرى الناظر في خلق الجنين علمًا وقدرة ورحمةً عامة، لكنه لا يعرف من المشاهدة وحدها أن اسم الله «**الغفور**»، ولا كيف تكون التوبة، ولا ما يقع بعد الموت، ولا ما يحبه الله من العبادات. وقد يرى موت طفل أو وقوع كارثة، فإن جعل المشهد وحده مصدرًا لتعريف الله، ربما اتهم الحكمة لأنه لم ير إلا جزءًا من القصة. الوحي هو الذي يضع العالم داخل الخلق والابتلاء والجزاء والرحمة والحكمة.

وهنا يظهر الفرق بين المصدر والدليل. المصدر يخبرك بالمحتوى الذي لا تعرفه من نفسك: اسم الله، وصفته، ووعده، وشرعه، وخبر الآخرة. والدليل يشير إلى صدق هذا الخبر ويوقظ العقل له: انتظام الكون، وافتقار النفس، واستحالة خلق الشيء لنفسه، وآيات النبوة. العقل والفطرة والكون يشهدون، لكنهم لا يستقلون بإنشاء تفصيل الغيب.

ولا يعني ذلك أن كل معنى عن الله لا يعرف إلا بعد سماع لفظه. قد يدرك العقل أن الخالق لا يكون عاجزًا ولا جاهلًا، وأن من أوجد الحكمة في خلقه ليس عبثيًا. هذه معارف إجمالية ولوازم صحيحة. لكن التفصيل والتسمية والطريق التعبدي حق للوحي. يعرف العقل أن للخالق كمالًا، ويأتي الوحي فيعرفه بأنه السميع البصير، العزيز الحكيم، الغفور الودود، ويبين له كيف يدعوه ويعبده.

وحين يبدو تعارض بين نص صحيح وعقل صريح، ينبغي أن يتوقف العبد قبل أن يتهم الوحي أو يعطل العقل. قد لا يكون الخبر ثابتًا أصلًا، أو يكون فهم النص ناقصًا، أو تكون المقدمة العقلية التي ظنها يقينًا مجرد عادة أو نظرية قابلة للنقض. أما الحق فلا يتناقض مع الحق؛ لأن منزل الوحي هو خالق العقل والكون.

ومن صور الخطأ أن يقال: لم أر في المخلوقات نظيرًا لهذه الصفة، إذن لا أثبتها. عدم النظير هو مقتضى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، لا سبب للنفي. ومن الخطأ المقابل أن يتخيل الإنسان للصفة كيفية من جنس ما يعرف، ثم ينسب خياله إلى النص. كلاهما جعل العالم المحسوس حاكمًا على رب العالمين.

ومن صور الخطأ أيضًا أن يتحول العلم التجريبي إلى فلسفة شاملة. العلم يصف كثيرًا من السنن القابلة للرصد، ويعين على فهم الخلق والانتفاع به، لكنه حين يتحدث عن الغاية النهائية، أو ينفي الغيب لأنه لا يدخل المختبر، يكون قد تجاوز أداته. عدم قياس الشيء بأجهزة المادة لا يعني عدم وجوده؛ فالأداة تحدد ما تستطيع رصده، لا كل ما يمكن أن يكون.

والتوازن يحفظ القلب من الخرافة كما يحفظه من الجحود. من عطل العقل قبل كل دعوى صدق كل حكاية ومنام، وربما نسب إلى الله ما لا علم له به. ومن جعله مصدرًا مستقلًا للغيب رد النصوص التي لم يألفها. المؤمن يسأل عن الدليل، ويتحقق من الثبوت، ويفهم الدلالة، ثم يعرف أين ينتهي العلم وأين يبدأ التسليم.

وعند كل قول عن الله يمكن أن يسأل المرء: أهذا خبر جاء به الوحي، أم معنى عقلي عام، أم تأمل يحتمل الصواب والخطأ؟ إذا كان خبرًا، فهل ثبت نصه وفُهم في سياقه؟ وإذا كان استنتاجًا، فهل يلزم من النص حقًا أم هو احتمال؟ وإذا كان شعورًا أو تجربة، فهل نعرضه بوصفه حالًا بشريًا أم نحوله إلى حكم على الله؟ وبهذه الأسئلة ينضبط التلقي، ويتحرر من الأوهام والظنون والتصورات البشرية القاصرة عن معرفة الله كما عرّف نفسه.

ومن ثمرات هذا الترتيب أن العبد إذا رأى آية كونية لم يقف عندها، بل عبر منها إلى ربها. لا يعبد الجمال، بل يستدل بحسن الخلق على كمال الخالق ويحبه ويحمده؛ ولا يعبد القوة، بل يعظم القوي؛ ولا يجعل السبب رازقًا، بل يأخذ به وهو يعلم من أقدره. الكون علامة تشير، فإذا وقف القلب عند العلامة ونسي من نصبها، عادت الآية حجابًا.

كما يتحرر من أن يطلب لكل قدر تفسيرًا خاصًا من عقله. يعرف من الوحي أن الله عليم حكيم رحيم، وأنه لا يظلم، ويبحث في الأسباب التي يستطيع معرفتها، لكنه لا يدعي أن هذه المصيبة وقعت لحكمة بعينها بلا دليل. جهله بالتفصيل لا يساوي جهله بربه؛ يعرف من فعل، وإن لم يعرف كل ما أراد بهذا الفعل.

بهذا يظل العقل حيًا والفطرة مستيقظة والنظر في الكون عبادة، من غير أن ينازع شيء منها الوحي حق التعريف بالغيب. هي نوافذ يدخل منها الضوء، أما الكلام الذي يسمى الأشياء ويبين الطريق فهو كلام الله وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم.

كيف يعرّف السياق بالله؟

بعد أن عرفنا المصدر، بقيت طريقة القراءة. قد يفتح القارئ معجمًا فيجد معنى الاسم، ثم يظن أنه استوفى ما أراده القرآن. المعجم يمنحه أصل الدلالة، لكنه لا يخبره وحده لماذا جاء الاسم هنا، ولماذا اقترن بغيره، وما الوهم الذي يصححه، وما العبادة التي يريد أن ينشئها. الاسم في القرآن جزء من حركة كاملة.

أول ما يُنظر إليه هو المقام: هل الآيات في حمد، أم دعاء، أم تشريع، أم قصة، أم احتجاج، أم وعد ووعيد؟ اسم «**الغفور**» في دعوة المذنب إلى التوبة يفتح باب الرجوع، وروده بعد ذكر العقوبة يمنع اليأس مع بقاء الهيبة. واسم «**الحكيم**» بعد حكم شرعي يقرر أن الأمر موضوع بعلم وحكمة، وروده مع «**العزيز**» يجمع نفاذ القدرة ووضع الأشياء مواضعها.

ثم تُقرأ الآية مع ما قبلها وما بعدها. اقتطاع الاسم قد يعطي معنى صحيحًا ناقصًا، وقد ينقل القارئ إلى وظيفة غير وظيفة المقطع. حين تقول الفاتحة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: 2–4]، لا تعرض ثلاثة أبواب منفصلة؛ تبني من الربوبية والرحمة والملك معرفةً تتهيأ بعدها النفس لتقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: 5].

ويُنظر في الاقتران بين الأسماء. ليست كل خاتمة قابلة لأن تستبدل بغيرها. ﴿**العزيز الحكيم**﴾ غير ﴿**الغفور الرحيم**﴾، مع أن الأسماء كلها حسنى. قد يحتاج المقام إلى تذكير بأن القدرة لا تنفصل عن الحكمة، أو أن المغفرة تأتي من رب قادر لا من عاجز، أو أن السمع مقترن بالبصر لأن السر والعلن كلاهما تحت الإحاطة. الاقتران نفسه تعليم.

ويُنظر في ترتيب الأسماء والأفعال. قد يتقدم الخلق ثم الأمر، أو الرحمة ثم المغفرة، أو العلم ثم الحكم. لا تُبنى عقيدة كاملة على سر بلاغي محتمل، لكن الترتيب قد يكشف حركة المقطع. القراءة المتأنية تسأل: ما الذي بدأ به؟ وإلى ماذا انتهى؟ وما الذي تغير في قلب المخاطب بين البداية والنهاية؟

ويُنظر فيما أثبته النص وما نفاه. آية الكرسي تبدأ بالتوحيد: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ [البقرة: 255]. ثم تثبت الحياة والقيومية، وتنفي السنة والنوم، وتثبت الملك والعلم والإذن والعلو والعظمة ليست ﴿**الحي**

القيوم﴾ تعريفًا معجميًا فقط، الحياة الكاملة والقيومية تفسران لماذا لا تأخذه سنة ولا نوم، ولماذا يقوم خلقه به ولا يقوم هو بأحد.

وسورة الإخلاص تثبت وتقطع أوهامًا في حركة قصيرة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4]. الأحدية والصمدية ليستا فكرتين منعزلتين، تتبعها نفي الولد والوالد والكفء، حتى يخرج القلب من قياس الخالق على سلاسل المخلوقات وحاجاتها.

ويُنظر في الحجة التي يحملها المقطع. قد يقرر القرآن أن الله خلق ورزق ثم يسأل: كيف تُصرف العبادة لغيره؟ وقد يذكر ملكه ثم يهدم الخوف التعبدي من المخلوق. فإذا أخذ القارئ الخبر وترك الحجة، بقيت عنده معلومة بلا وجهة. والسؤال ليس فقط: ماذا قالت الآية عن الله؟ بل: ما الباطل الذي أسقطته بهذه المعرفة؟

كما يُنظر في الحق أو الأثر الذي انتهت إليه الآيات. قد يكون الأثر صريحًا في الأمر: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، أو في الدعاء: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، أو في الخشية، أو التوكل، أو الشكر. وقد يكون لازمًا بينًا من السياق. لكن لا نلصق بكل اسم قائمة آثار محفوظة، فالأثر الذي ينشئه الاسم في مقام التوبة يختلف عن أثره في مقام الحكم أو البلاء.

وتأتي السنة لتشرح الحركة أو تجسدها. قد يذكر القرآن الرحمة، وتأتي السنة بصورة فرح الله بتوبة عبده، وقد يذكر القرب، وتبين السنة ما يقوله العبد في سجوده ودعائه، وقد يذكر الملك، ويأتي الحديث بمشهد قبض الأرض وطي السماوات. لا تُحشد النصوص حتى تتنافس، بل يختار منها ما يحمل الوظيفة ويزيد المعنى الذي فتحه القرآن وضوحًا وأثرًا.

ومن أهم ضوابط القراءة التفريق بين ثلاث درجات. هناك معنى صريح قاله النص، وهذا يُقرر بثقة. وهناك لازم صحيح يدل عليه الكلام، وهذا يُذكر بقدر دلالته. وهناك تأمل تربوي أو تنزيل على واقع، وهذا يُعرض بأدب من غير أن يقال إن الله أراد بهذه الآية هذا التطبيق بعينه. كثير من التوسع غير المنضبط يبدأ حين تُسوّى هذه الدرجات.

وقد تعود الآية أو السورة في أكثر من مقام، ولا يعني ذلك تكرار الوظيفة. فـ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تبني في الفاتحة جزءًا من اللقاء الجامع، وتكشف في مقام الملك والرجوع أن الآخرة تمام معنى الملك.

وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: قد تُقرأ لبيان العبادة، وقد تعود محكًّا لما صنعت المعرفة. العبرة بوظيفة النص في سياقه، لا بمجرد تكراره.

بهذه القراءة لا تتحول الأسماء إلى أبواب مفككة. القرآن نفسه يجمع ما تفرقه العناوين: يذكر الاسم مع الفعل، والصفة مع الحق، والكون مع العبادة، والقدر مع الحكمة، والآخرة مع الملك. وليس النجاح في كثرة الأسماء المشروحة، بل في حفظ حركة المقطع، وإيصال الخبر إلى القلب والعمل من غير أن يُحمَّل النص ما لا يحتمل.

ومن أخطر ما يفسد القراءة أن يدخل القارئ إلى الآية بجواب مكتمل. قد يريد إثبات فكرة نفسية أو اجتماعية، فيبحث عن اسم يناسبها، ثم يجعل القرآن شاهدًا. الطريق المعكوس أن يبدأ بالسؤال الذي يفتحه النص، ويترك بنيته تعدل فكرته. قد يجد أن الآية لا تقول ما توقع، أو تجمع بين الرحمة والحساب بطريقة تمنع اختزاله، أو تضع للرجاء حدًا لم يكن يريده.

ولا يعني اتباع السياق أن تُغلق دلالة الاسم في موضع واحد. الاسم ثابت لله وله معناه الكامل، وتضيء مواضعه بعضها بعضًا. لكن الجمع يكون بعد حفظ وظيفة كل موضع. نقرأ «**الرحيم**» في الفاتحة، وفي التوبة، وفي التشريع، ثم نبني صورة أوسع من مجموع السياقات؛ لا نأخذ معنى واحدًا وننسخه على كل موضع حتى تختفي خصوصية الخطاب.

كما ينبغي أن يُقرأ القصص من جهة فاعله الأعلى، من غير إلغاء أفعال البشر. في قصة موسى يظهر طغيان فرعون وصبر المؤمنين وأسباب النجاة، لكن القصة تعرف أيضًا بمن سمع وعلم وأرسل ونجّى وأغرق. إذا تحول القصص إلى بطولة بشرية فقط غاب رب القصة، وإذا ألغيت مسؤولية البشر باسم القدر فسد التكليف. السياق يجمع الفعل الإلهي والفعل الإنساني تحت الملك والحكمة.

وفي الأحكام تأتي الأسماء لتعرّف بالمشرّع وتربي المخاطب. قد تختم آية بالعلم لأن السرائر داخلة في الحكم، أو بالحكمة لأن التشريع صادر عن علم وحكمة، أو بالمغفرة بعد تكليف ليبقى باب العودة مفتوحًا. قراءة الاسم هنا تمنع فصل العقيدة عن الشريعة؛ فالذي نعرفه في آيات الأسماء هو الذي يأمر وينهى، وحقه أن يُطاع كما يُحمد ويُحب.

وفي الدعاء لا تكون الأسماء مقدمات لفظية. حين يقول زكريا عليه السلام: ﴿**وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾ [مريم: 4]، يظهر تاريخ من المعرفة والرجاء. وحين يدعو الأنبياء بأسماء تناسب حاجاتهم، يعلمون العبد أن يطلب من الله وهو يعرف من يخاطب. الدعاء باسم الله ليس ترديدًا صوتيًا؛ هو استحضار للمعنى الذي يقوم عليه الرجاء.

والسياق يحمي من صناعة تعارض بين الأسماء. الرحمة لا تعني أن يترك الله الظلم بلا حساب، والعزة لا تعني قهراً بلا حكمة، والمشيئة لا تعني عبثًا، والحكم لا ينفصل عن العلم. كلما جمع القرآن اسمين أو نقل القارئ بين مقامين، وسّع الصورة حتى لا يتعبّد معنى مبتورًا. كثير من سوء الظن يبدأ من اسم قرئ وحده، أو أثر ضُخم حتى حجب بقية الوحي.

وإذا اختلف المفسرون في معنى يحتمله اللفظ، لم يكن ذلك بابًا للفوضى. ينظر في اللغة والسياق وأقوال السلف وما يعضده مجموع القرآن، ويُحفظ للخلاف قدره. لا يُبنى أصل عقدي على احتمال نادر، ولا يُجزم بتأمل بلاغي كأنه مراد وحيد. التواضع العلمي جزء من تعظيم المتكلم؛ فمن عرف عظمة الكلام لم يسارع إلى نسبة كل خاطر إليه.

بعد هذه الأصول يستطيع القارئ أن يدخل إلى كل مقطع بأربعة أسئلة متداخلة: ماذا عرّف الله به نفسه هنا؟ ما الوهم أو الانحراف الذي يصححه؟ ما الحق الذي يطلبه من العبد؟ وكيف يتحول هذا الخبر إلى رؤية للحياة والعبادة؟ لا تُطرح الأسئلة كقالب آلي يقطع جمال التلاوة، بل كحراسة تمنع أن تمر الآيات على القلب بلا فهم ولا أثر.

وقد يقرأ القارئ الاسم مرات، ولا يفتح له أثره في كل مرة. ليس المطلوب أن يصنع شعورًا، بل أن يصدق في التلقي. يقف عند النص، ويراجع تفسيره، ويدعو الله أن يرزقه فهمًا وخشيةً ومحبة، ثم يحمل ما علم إلى موضعه من حياته. المعرفة هبة وطلب؛ لا تنال بالذكاء وحده، ولا تستقر بلا مجاهدة.

وهكذا يكون معنى «منه نعرفه»: منه نأخذ الخبر، وبآياته نوقظ العقل والفطرة، وبلسان وحيه نفهم، وببيان رسوله صلى الله عليه وسلم نكمل التلقي، وفي سياق كلامه نرى الاسم وهو يبني الحجة والعبادة. لا نأتي إلى الله من صورة صنعناها، بل نخرج من صورنا إليه.

هُوَ اللَّهُ

لا يعرّف القرآن الناس بربهم في قائمة باردة من الأسماء والصفات؛ بل يجمع الاسم إلى الاسم، والإثبات إلى التنزيه، والخبر إلى العبودية، حتى يضيء بعض الكلام بعضًا. فلا يُعزل الاسم عن سياقه ولا عما جاوره، ولا يُحبس في معناه الذهني؛ بل يُنظر: ماذا يثبت؟ وماذا ينفي؟ وإلى أي عبادة يقود؟

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

في كل ركعة يعاد ترتيب عالمك

يدخل المصلي صلاته وقلبه محمّلًا بهمٍّ ينتظر حله، أو ذنب يخاف أثره، أو رزق يترقب بابه، أو حديث من الناس لم يغادر صدره. ثم يقرأ الفاتحة. في كل ركعة تعيد السورة ترتيب عالمه: تبدأ بالله قبل حاجته، وبالحمد قبل شكواه، وبرب العالمين قبل السبب الذي استولى على فكره، وبالرحمة قبل اليأس، وبملك يوم الدين قبل ضغط اللحظة، ثم تجمع وجهته في ﴿إِيَّاكَ﴾ وتضع حاجته الكبرى في ﴿اهْدِنَا﴾.

لا تبدأ الفاتحة بوصف الإنسان ولا بمشكلاته، ولا تفتتح بوعد يخفف عنه أو أمرٍ يطالبه. تبدأ بالله. قبل أن يعرف العبد ما يريد، يُعرَّف بمن يريد منه؛ وقبل أن يسأل الهداية، يقف أمام الرب والرحمن والمالك. وكأن أول إصلاح للحياة ألا يبدأ الإنسان من ضيق حاجته، بل من سعة معرفته بالله. فالحاجة حين تُقرأ وحدها تكبر حتى تملأ الأفق، أما حين توضع بين يدي رب العالمين فإنها تسترد حجمها، ويعرف صاحبها إلى من يرفعها.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 2-7]

أن تبدأ من الحمد

تجيء الكلمة الأولى خبرًا وعبادةً في آن: الحمد لله. ليست العبارة إعلانًا عن نعمة بعينها، ولا ثناءً مشروطًا بفرج وقع أو دعاء أجيب؛ إنها ردُّ الوجود كله إلى مستحق الحمد. نعم الله تدخل في الحمد، وكماله

يدخل فيه، وأفعاله التي أدرك العبد حكمتها والتي لم يدركها تدخل فيه. لذلك لا يظل الحمد تابعًا لتقلب المزاج؛ فالعبد قد يفرح فيحمد، وقد يتألم فيحمد، لأن حمده لا يقوم على شعوره وحده، بل على من هو الله.

وفي الحمد اجتماع لا تصنعه عبارات الإعجاب العابرة. قد يثني الإنسان على قوة يخافها ولا يحبها، وقد يحب شخصًا لا يعظمه، أما حمد الله فيجمع محبته لكماله وإحسانه، وتعظيمه، والرضا بأن يكون الثناء له. ومن هنا يبدأ علاج خفي لكثير من اضطراب القلب: حين يظن أن السكينة لا تعود إليه إلا إذا انتظم كل شيء كما يشتهي. الفاتحة لا تعده أولًا بأن العالم سيجري وفق رغبته؛ تعلّمه أن يرى رب العالمين أهلًا للحمد والمحبة قبل أن يعرف بقية الطريق.

ولم تقل السورة: الحمد للرب، ثم تترك الاسم بعيدًا عن قلب العبد؛ بل قالت: لله. الاسم الجامع الذي تلتقي عنده الأسماء والصفات والأفعال، والذي يعرفه المؤمن فلا يخلطه بمسمى سواه. ثم جاءت الربوبية بعده لتكشف جهة الصلة بالعالم: هذا الإله المحمود هو رب كل شيء، لا رب لحظة التعبد وحدها، ولا رب جماعةٍ دون جماعة، ولا رب المسجد ثم تنفصل عنه حركة السوق والبيت والتاريخ.

رب العالمين: العالم كله في رعاية واحدة

تفتح كلمة العالمين الأفق إلى أبعد من محيط الفرد. كل عالم يراه الإنسان وما لا يراه، كل خلق عرفه أو جهل طريقته، كل جيل مضى وكل نفس ستأتي؛ الجميع داخل ربوبية الله. وما من موجود يملك أن يمنح نفسه أصل الوجود أو بقاءه أو نظامه. هكذا تخرج الكلمة القارئ من وهم المركزية: العالم لا يدور حول قصته، لكنه لا يضيع كذلك في كون بلا رب.

حين يقول المصلي: رب العالمين، فهو لا يقرر فكرةً عن بدء الخلق فحسب، بل يعترف بأن وراء هذا التنوع الهائل ربًا واحدًا. اختلاف القوى والأرزاق والأقدار لا يعني أن العالم موزع بين أرباب، وتعارض ما يراه الإنسان من أسباب لا يخرجه عن ربوبية الله. لا يحتاج القلب في هذا الموضع إلى تحليل كل فعل من أفعال الرب، بل إلى أن يستقر فيه المعنى الجامع: أنت واحد من العالمين، وربك ربهم جميعًا؛ فلا تتضخم، ولا تستوحش.

الربوبية في الفاتحة ليست سلطةً مجردة عن العناية. ومن معاني الرب في كلام العرب: السيد والمالك والمدبر والمصلح القائم على شأن مربوبه. وقد جاء الاسم بعد الحمد، ثم أعقبته الرحمة؛ فلا تقدم السورة العالم متروكًا لقوة عمياء، ولا الإنسان لقدر لا يسمع أنينه، بل تربطه برب محمود، ثم تفتح له بابين من الرحمة قبل أن تذكر يوم الدين.

الرحمن الرحيم: الرحمة داخل صورة الرب

يتكرر الاسمان اللذان افتتحت بهما البسملة: الرحمن الرحيم. وليس التكرار حشوًا؛ فالرحمة هنا جزء من التعريف الذي سيقف عليه طلب العبد كله. لو عرف الإنسان القدرة دون الرحمة ربما رأى الكون ساحة قهر، ولو عرف الرحمة مجردة عن الملك والحساب حوّلها إلى أمنية تبرر الغفلة. الفاتحة تجمع ولا تقتطع: ربوبية، ورحمة، وملك يوم الدين؛ فلا يطغى معنى فيفسد المعاني الأخرى.

يقف العبد بين الاسمين وهو يحمل تاريخًا من التقصير، وضعفًا يعرفه في نفسه، وحاجات لا يحيط بها. ولا تقول له السورة إن رحمة الله لا تُرجى إلا بعد كمال الاستحقاق؛ وإلا ما وجد بابًا يدخل منه. تعرّفه أولًا بأن ربه الرحمن الرحيم، ثم يأتي سؤال الهداية، فيرفع حاجته إلى رب يعلم ضعفه ويفتح له باب الرجاء.

ومن دقة البناء أن الرحمة لا تمحو الربوبية، والربوبية لا تحجب الرحمة. بعض الناس يطلب إلهًا يرحم من غير أن يأمر، وبعضهم يتصور الأمر منفصلًا عن الرحمة، فترد الفاتحة على الانقسام من أصله: الذي يربي ويملك هو الرحمن الرحيم، والذي يرحم هو رب العالمين. لا تحتاج النفس إلى أن تختار بين الهيبة والأنس؛ هي تحتاج أن تعرف الله كما عرّف نفسه، فتأخذ من كل اسم نصيبه في الصورة.

مالك يوم الدين: لا تضيع الأعمال في الطريق

ثم يفتح المقطع نافذةً على النهاية: مالك يوم الدين. ليس ذكر الآخرة انتقالًا بعيدًا عن التعريف بالله، بل تمام لصورة الملك. في الدنيا تظهر للناس أملاك وسلطات وأحكام، وقد ينجو ظالم من محكمة، ويغيب حق عن الشهود، ويخرج إنسان من الحياة قبل أن يرى ثمرة صبره. يوم الدين يعلن أن القصة لم تنته حيث توقفت أعيننا، وأن الملك الذي قد يخفى كماله في الدنيا يظهر يوم لا يملك أحد لأحد شيئًا.

ولا تسوق الفاتحة هنا مشاهد القيامة ولا تفاصيل الحساب؛ إنها تضع اليوم كله تحت اسم واحد: مالك. فيهدأ خوف العبد من ضياع الحق، ويستيقظ خوفه من ضياع نفسه. والذي سيحاسب هو رب العالمين الرحمن الرحيم؛ فلا يتحول الحساب إلى رعب من حكم مجهول، ولا تتحول الرحمة إلى إلغاء للجزاء. هكذا يُبنى التوازن من داخل السورة، لا بإضافة واعظ من خارجها.

ويوم الدين يعيد وزن الزمن الحاضر. ما يراه الإنسان عاجلًا قد لا يكون أثقل الأشياء، وما يفوته في يومه قد لا يكون خسارته الكبرى. حين يدخل مالك يوم الدين في وعيه، تتراجع سلطة اللحظة، ويصبح قادرًا على رفض لذة تفسد آخرته، والصبر على طاعة لا يرى ثمرتها فورًا. هكذا يكمل ذكر النهاية اللقاء الأول، ويمنع معرفة الله من الانغلاق داخل الدنيا.

من الغائب إلى الخطاب

بعد ثلاث آيات من الثناء ينتقل الأسلوب انتقالًا محسوسًا: من الحديث عن الله إلى خطاب الله. كان العبد يقول: الحمد لله، رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين؛ ثم صار يقول: إياك نعبد وإياك نستعين. كأن المعرفة الصحيحة إذا اكتملت بدايتها لم تسمح لصاحبها أن يبقى متفرجًا. الأسماء تستدعي جوابًا، والخبر يفتح عهدًا، والثناء يهيئ للمناجاة.

تقديم ﴿إياك﴾ [الفاتحة: 5] يحصر القصد والطلب. ولم يقل العبد ﴿**إياك نعبد**﴾ [الفاتحة: 5] قبل أن يعرف من يخاطب؛ سبقتها الربوبية والرحمة والملك، فصارت العبادة جواب معرفة لا حركة بلا معنى. وإذا ثقلت العبادة، فجدير بالعبد أن يسأل: أي معنى من ربوبية الله ورحمته وملكه ضعف حضوره في قلبي، حتى بردت المحبة أو غلبني الهوى؟

ثم يأتي سؤال الهداية بعد العبادة والاستعانة. لا يطلب العبد طريقًا من فراغ، ولا يزعم أنه يجد الهدى بقوته؛ لقد عرف ربه أولًا، وأعلن قصده، واستعان به، ثم قال: ﴿**اهدنا**﴾ [الفاتحة: 6]. فالهداية عطية تُطلب من رب العالمين، ويصحب طلبها اعتراف بالحاجة كل يوم، لا شهادة قديمة بأن المرء اهتدى وانتهى.

حين يجيب الله قارئ الفاتحة

جاءت السنة فكشفت أن هذه القراءة ليست كلامًا يجري في جهة واحدة. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ روى عن ربه جل وعلا: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ... قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» (صحيح مسلم، 395)

سمّى الحديث الفاتحة صلاةً لعظم موقعها فيها، ثم فرّق بين الحمد والثناء والتمجيد، وكشف أن كل آية تقع موقعًا معلومًا من المناجاة. المصلي لا يلقي كلمات في فضاء صامت؛ ربه يقول: حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي. وحين يعي القلب هذه الإجابة، تتغير هيئة القراءة: يبطؤ اللسان، ويستحي أن يمر على الاسم غافلًا، ويشعر أن ضمير العبودية في الحديث ليس إهانةً له، بل شرف القرب والخطاب.

والحديث لا يضيف حركة غريبة عن السورة؛ بل يكشف الحركة التي كانت فيها: ثناء، ثم عهد، ثم سؤال. لذلك لا يصح أن نقرأ الفاتحة كمقدمة شكلية للصلاة. هي في كل ركعة إعادة دخول إلى معرفة

الله، وتصحيح للمركز الذي تدور حوله النفس. قد تدخل الصلاة محملًا بهمومك، فتردك الفاتحة إلى الحمد، مشغولًا بسبب، فتردك إلى رب العالمين؛ خائفًا من ذنب، فتفتح الرحمن الرحيم؛ غافلًا عن العاقبة، فتوقفك عند مالك يوم الدين.

فاتحة تُقرأ في الحياة

أثر الفاتحة لا يقف عند لحظة التلاوة، مع أن الصلاة أعظم مواضعها. من عاش ﴿**الحمد لله**﴾ [الفاتحة: 2] لم يجعل رضاه أسير ما في يده. ومن عاش ﴿**رب العالمين**﴾ [الفاتحة: 2] لم يعبد تفسيرًا ماديًا مغلقًا للعالم، ولم يظن أن حياته مهملة. ومن عاش ﴿الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة: 3] لم ييأس من باب الله، ولم يحول الرحمة إلى رخصة. ومن عاش ﴿**مالك يوم الدين**﴾ [الفاتحة: 4] لم يبع آخرته ليكسب حكم ساعة.

والمحك بعد هذه القراءة أن يسأل القارئ نفسه: أي صورة لله أحملها وأنا أطلب؟ هل أطلب من رب محمود رحيم مالك، أم أكرر ألفاظًا لا تدخل في خوفي ورجائي؟ ليست الغاية أن يستحضر شرحًا طويلًا في كل ركعة؛ فقد يشغله ذلك. الغاية أن تصير المعاني الكبرى وراء الألفاظ، كما يكون النور وراء الزجاج: لا يحتاج أن يسمي كل شعاع، لكنه يرى به.

وهكذا تمنح الفاتحة اللقاء الأول من جهة الصلة: رب يُحمد ويربي ويرحم ويملك، وعبد يعبد ويستعين ويسأل.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

حين يحتاج الضعيف إلى معنى أكبر من الطمأنة

يبحث الإنسان عن الأمان في أشياء يعرف ضعفها: باب يغلقه، مال يدخره، طبيب يثق به، شخص قوي يلوذ بقربه. وهذه أسباب مأمور بالأخذ بها في مواضعها، لكن القلب يثقل حين يحملها ما لا تطيق، ويطلب منها يقظةً لا تنام، وعلمًا لا يخطئ، وقدرةً لا تفتر. آية الكرسي لا تزهد العبد في الأسباب، بل تعيد توزيع الاعتماد: الأسباب محدودة لأنها مخلوقة، والأمن الأعلى لا يليق إلا بالحي القيوم.

هذه الآية لا تبني معنى واحدًا، ولو عُزلت جملها بعضها عن بعض ضاع سرها. الألوهية تتساند مع الحياة، والحياة مع القيومية، والقيومية يظهر كمالها في نفي السنة والنوم، ثم يتسع المشهد إلى الملك والشفاعة

والعلم والكرسي والحفظ، ويختم بالعلو والعظمة. كل جملة تحمل التي بعدها، وكل نفي يحرس إثباتًا، حتى يقف الإنسان في آخرها أصغر في نفسه وأثبت في ربه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]

افتتاح لا يترك للقلب موزعًا آخر

تبدأ الآية بالاسم الجامع، ثم تنفي استحقاق العبادة عن كل سواه: الله لا إله إلا هو. ليست هذه الجملة عنوانًا يعلق فوق بقية الصفات، بل هي النتيجة التي تبرهن عليها الآية كلها. لأنه الحي القيوم، ولأن الملك له، والشفاعة بإذنه، والعلم علمه، والحفظ لا يثقله، فهو وحده الإله الحق. وهكذا لا يأتي التوحيد شعارًا مجردًا، يأتي محمولًا على معرفة بمن يستحقه.

تكرار «هو» في المقاطع الجامعة يرد القلب إلى ذات واحدة تتعدد أسماؤها ولا يتعدد المسمى. الله هو الحي، وهو القيوم، وله الملك، وهو العليم، وهو العلي العظيم. ليس أمام العبد قوى متفرقة يتعامل مع كل واحدة كأن لها مجالًا مستقلًا؛ ما يراه من حياة وحفظ وعلم وسلطان في الخلق آثار ناقصة مخلوقة، أما كمالها فله وحده. وإذا انضبط هذا الفارق لم يتأله سبب في القلب، ولم يتحول تعظيم مخلوق إلى اعتماد مطلق.

الحي القيوم: كمال لا ينقطع وإقامة لا تفتر

الحياة في المخلوق هبة محدودة، تسبقها حال لم يكن فيها، ويلحقها موت، وتتخللها غفلة وعجز ومرض. أما اسم الحي في هذا المقام فيثبت لله حياةً كاملة لا يسبقها عدم ولا يلحقها فناء، حياةً تليق بجلاله ولا تقاس بحياة خلقه. ومن هذا الكمال تنفتح دلالات العلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة؛ فليس الاسم معنى معزولًا، بل أصل تتساند معه صفات الكمال.

والقيوم هو القائم بنفسه الغني عن خلقه، المقيم لغيره الذي لا قيام لشيء إلا به. لا يحتاج إلى من يحفظ ملكه، وكل ما عداه محتاج في أصل وجوده وبقائه وحركته. هذه الدلالة تقلب وهم الاستقلال الذي يسكن الإنسان: يرى انتظام جسده فيحسبه ملكًا مضمونًا، ويرى دوام مؤسسة أو دولة أو سبب فيتوهم أنها قائمة بذاتها. الآية تسحب من كل قائم دعوى القيام المستقل، ثم ترده إلى القيوم.

ومعنى القيومية لا يدعو إلى السكون وترك العمل؛ لأن الله أقام العالم على سنن وأسباب، وجعل العبد مسؤولًا عن فعله. الذي يسقط هو اعتقاد أن السبب يكفي بنفسه، أو أن تأخر النتيجة يعني غياب الرب. يعمل المؤمن بما يستطيع، لكنه لا يسلّم قلبه للآلة التي يعمل بها. يعرف أن انتظام الأسباب نفسه قائم بالله، وأن ما ينجح منها لم يخرج لحظةً عن قيوميته.

لا تأخذه سنة ولا نوم

بعد إثبات الحياة والقيومية يأتي النفي الذي يحرس كمالهما: لا تأخذه سنة ولا نوم. السنة مقدمة النوم وفتوره، وقد نُفيت قبل النوم حتى لا يبقى في التصور أدنى مدخل للغفلة أو الضعف. البشر يتناوبون الحراسة لأن الواحد منهم لا يملك دوام اليقظة؛ تتعب العين، ويثقل الجسد، ويغيب الوعي. أما رب العالمين فلا يعرض له ما يعرض للمخلوق، ولا تحتاج رعايته إلى من يخلفه حين يغيب.

هذه الجملة ليست خبرًا عقديًا بعيدًا عن الحياة. كم من خوف يبدأ من سؤال: ماذا لو غاب من أحتمي به؟ ماذا لو لم ير الطبيب علامة الخطر؟ ماذا لو نام الحارس؟ ماذا لو سقطت منظومة ظنناها لا تسقط؟ الآية لا تعد أن الأسباب لن تخطئ، لكنها تعيد القلب إلى من لا تأخذه سنة ولا نوم. يقع الخلل في الوسائط، ويبقى القيوم فوقها، لا يفوته أمر ولا تنفلت منه حياة.

ومن الخطأ أن يتلقى الإنسان هذا المعنى طلبًا لطمأنينة سهلة ثم يعود إلى الغفلة. الذي لا ينام يرى عملك كذلك، ويقيم عليك حجته، ويعلم ما تخفيه. الأمن تحت القيوم ليس انفلاتًا من الرقابة، بل جمع بين السكينة والمراقبة: تسكن لأن حفظ العالم لا يقوم بك، وتستحي لأنك لا تغيب عن علمه.

ملك لا ينازعه أحد

يتسع الخطاب بعد نفي النوم إلى الملك كله: له ما في السماوات وما في الأرض. دخول الأشياء تحت «له» أبلغ من مجرد القول إنه يملكها؛ فهي له خلقًا وملكًا وعبوديةً وقهرًا. والإنسان واحد من هذا العموم، لا يقف خارجه ليفاوض الله على ملكه. جسده الذي يحرص عليه، وماله الذي يصفه بأنه ماله، ومن يحبهم ويخشى فقدهم؛ الجميع داخل ملك الله قبل أن يدخلوا في نسبته المؤقتة.

هذا لا يلغي الملك البشري الذي أثبته الشرع ورتب عليه الحقوق، لكنه يمنعه من التحول إلى أصل مطلق. ما في يدك ملك مُمكَّن فيه، لا ملك منشئ. لذلك يصح أن تسأل عنه: من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟ وكيف تعاملت مع من شاركك فيه حقًا؟ المعرفة بأن الملك لله لا تجعل الإنسان زاهدًا في الأمانة، بل أشد شعورًا بها؛ لأنه يتصرف في شيء يعلم أن نسبته الأخيرة إلى الله.

جاءت آية الكرسي بعد قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: 254]، ثم أثبتت الشفاعة في موضعها الصحيح: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]. فالمنفي شفاعة يملكها أحد استقلالًا على مثال وساطات الدنيا، والمثبتة لا تقع إلا بإذن الله ورضاه. بهذا الاستفهام ينهدم توهم من يضغط على إرادة الملك أو يمرر ما لم يرد.

موضع الشفاعة هنا ليس تفصيل أنواعها وشروطها، بل حماية صورة السيادة الكاملة. لا يوجد في ملك الله شخص يملك منفذًا مستقلًا عليه، ولا قربٌ يحول المخلوق إلى شريك قرار. وحين يفهم العبد ذلك، لا يعلق قلبه بمخلوق تعلقًا يتجاوز حد السبب والدعاء المشروع. يحب الصالحين ويعرف أقدارهم، لكنه يعرف قبل ذلك قدر الرب الذي لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

علم يحيط وحفظ لا يثقل

ثم تأتي جملة العلم في مقابلة دقيقة بين إحاطة الخالق وحدود المخلوق: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. لا تترك الآية الإنسان جاهلًا تمامًا؛ فقد منحه الله علمًا، لكنها تنزع عنه ملكية العلم واستقلاله. ما عرفه فبتعليم الله ومشيئته، وما جهله أوسع مما عرف، وما بدا له كشفًا نهائيًا قد يراجعه غدًا حين يُفتح له ما لم يكن يرى.

في هذا الموضع يشفى العقل من مرضين متقابلين: الكبر الذي يتوهم الإحاطة، والكسل الذي يحتج بالمحدودية على ترك التعلم. لأن الله هو العليم، يطلب العبد العلم ويوقر الحقيقة؛ ولأنه لا يحيط إلا بما شاء الله، يتواضع ولا يجعل نموذجه الذهني حاكمًا على الوحي. وحين يصل إلى خبر غيبي صحيح لا يقيسه على حدود خبرته ثم يرده، بل يعرف أن قلة إحاطته جزء من حقيقة الموقف.

يوضع العلم هنا داخل شبكة السيادة والقيومية: يعلم لأنه لا يغيب عنه شيء، ويأذن لأنه الملك، ويكشف لعباده من علمه ما يشاء. فلا يطلب المقطع استقصاء مسائل العلم الإلهي، بل أن يدرك الإنسان موقعه تحت علم لا تحجبه الأزمنة والجهات، وأن يرى كل علم في يده عطية لا عرشًا يجلس عليه.

ينتقل المقطع من علم الله إلى مشهد الكرسي والسماوات والأرض. يثبت المؤمن ما أثبته الله من غير تكييف ولا تمثيل، ولا يحول اللفظ إلى مساحة يتصرف فيها الخيال. وفي حركة الآية تتكمش السماوات والأرض، على عظمتهما في تصور الإنسان، تحت سعة هذا الملك؛ فلا يبقى لما يعظمه من أجرام وعوالم أن ينازع في قلبه عظمة الله.

ثم يأتي النفي مرة أخرى: ولا يؤوده حفظهما. لا يثقله ولا يشق عليه حفظ السماوات والأرض. الإنسان قد يحمل أمرين فيضيق بهما، وقد تتسع مسؤوليته فيضعف ضبطه، أما حفظ هذا الكون كله فلا

يلحقه منه تعب. كلما اتسع العلم البشري في وصف المجرات والقوانين ازداد مجال التعظيم، لا لأن النص محتاج إلى اكتشاف ليصدق، بل لأن اتساع المرئي يجعل قصور المخلوق أوضح ومعنى الحفظ أهيب في القلب.

وهو العلي العظيم

تختم الآية باسمين يرفعان القلب بعد أن مر بالملك والعلم والحفظ: العلي العظيم. له العلو على الوجه اللائق به، وله العظمة التي لا يحيط بها مخلوق. فينتهي المقطع إلى علو يضع كل متعال من الخلق في قدره، وعظمة ترد المهابة إلى مستحقها، من غير أن يحمل العقل اللفظ على كيفية لم يخبر بها الله.

حين يطغى إنسان أو مؤسسة أو قوة، يبدو لصاحب النظر القصير أنها فوق كل شيء. ﴿**وهو العلي العظيم**﴾ [البقرة: 255] تمنع الصورة المؤقتة من أن تصبح عقيدة. قد يملك الطاغية أداة إيذاء، لكنه لا يخرج عن ملك العلي؛ وقد يكبر السبب في العين، لكنه يبقى صغيرًا تحت العظيم. لا تولد من هذا تهوّرًا في مواجهة الواقع، بل شجاعة موزونة: تقدّر قوة المخلوق كما هي، ولا تمنحها في قلبك صفة المطلق.

لماذا عظمت آية الكرسي؟

سأل النبي ﷺ أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه سؤال العالم الذي يريد أن يستخرج العلم من قلب صاحبه:

«**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾. فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**» (صحيح مسلم، 810)

ومن أظهر ما يفسر عظمتها ما اجتمع فيها من التعريف بالله: ألوهيته وحياته وقيوميته وملكه وعلمه وعلوه وعظمته. ولم يكتف النبي ﷺ بتصحيح جواب أُبيّ، بل هنأه بالعلم، كأن معرفة مواضع التعريف بالله في القرآن علم يستحق التهنئة. فالفضيلة هنا لا تدعو إلى تلاوة عددية فحسب؛ تدعو إلى إدراك ما جمعته الآية، وما ينبغي أن يصنعه هذا التعريف في قارئها.

وثبت في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان أن من قرأها عند نومه يكون عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وأقر النبي ﷺ الخبر بقوله: «**صدقك وهو كذوب**» (صحيح البخاري، 2311). وليس الأثر تعويذة منفصلة عن معنى الآية؛ فالذي يقرؤها يعلن افتقاره إلى الحي القيوم، ويدخل ليله تحت ملك من لا ينام، ويستودع ضعفه لمن لا يؤوده حفظ السماوات والأرض.

أن تنام تحت القيومية

لحظة النوم اختبار يومي لحقيقة الإنسان. يترك وعيه وأدواته، ولا يملك أن يحرس قلبه ولا أن يضمن استيقاظه. من هنا كانت آية الكرسي مناسبةً لهذا الموضع: أنت تنام، وربك لا تأخذه سنة ولا نوم؛ أنت تفقد تدبير جسدك، والقيوم لا ينقطع تدبيره؛ أنت لا تعلم ما يدخل عليك في ليلك، وهو يعلم ما بين أيدي الخلق وما خلفهم. هذه ليست طمأنة نفسية مصنوعة، بل عبودية قائمة على الخبر.

ومع الصباح يبقى المحك: هل يعود القارئ إلى حمل العالم كأنه قائم به؟ قد يقرأ آية الكرسي ليلًا، ثم يدخل نهاره مذعورًا من كل سبب، أو متكبرًا بعلمه، أو متعلّقًا بوسيط كأنه يملك الأمر. القراءة التي لم تصحح الاعتماد لم تُستوفَ ثمرتها بعد. المطلوب ألا يترك العمل، بل أن يعمل من موضعه الصحيح: مخلوق محدود، تحت ملك القيوم، يستمد من ربه ولا يدعي ما ليس له.

في الفاتحة عرف العبد ربه في مقام الحمد والطلب، وفي آية الكرسي وقف أمام كمال تتساند أجزاؤه. غير أن النفس قد تعرف صفات كثيرة ثم تبقي في تصورها شبهًا خفيًا بين الخالق والمخلوق، أو تتخيل لله نسبًا وحاجةً ومماثلًا. هنا تأتي سورة قصيرة تقطع تلك الجذور بأربع آيات: قل هو الله أحد.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]

وتجمع هذه الآية أفقًا لم تستوفه آية الكرسي وحدها: قبل كل مخلوق كان هو الأول، وبعد فناء الخلق يبقى هو الآخر؛ وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء. فلا بداية تسبق ربوبيته، ولا نهاية تخرج عن ملكه، ولا ظاهر يحجبه، ولا باطن يخفى عليه. وجاء العلم خاتمةً تمنع أن تتحول هذه المعاني إلى تجريد بعيد: الأول والآخر والظاهر والباطن هو العليم بكل شيء.

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

حين يقيس الخيال الغيب على الشهادة

العقل يعرف كثيرًا من الأشياء بالمقارنة: هذا أكبر من ذاك، وهذا يشبه ذاك، وهذا وُلد من ذاك. تنفعه المقارنة في عالم المخلوقات، لكنها تصبح باب ضلال حين يحملها إلى الله. كل صورة عرفها الإنسان محدودة ومركبة ومحتاجة، وكل حي رآه مسبوق بغيره أو منته إلى فناء. فإذا حاول أن يجعل هذه الصور أصلًا يقيس عليه ربه، لم يعرف الله، بل صنع في خياله مخلوقًا مكبرًا.

سورة الإخلاص تغلق هذا الباب بألفاظ قليلة لا تترك للتصور الفاسد منفذًا: أحد، صمد، لم يلد، لم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. إثبات يتبعه نفي، وكمال يقطع أوهام النسب والحاجة والمماثلة. هي ليست

تعريفًا ناقصًا لصغر حجمها، بل تركيز شديد لما ينبغي أن يستقر في أصل المعرفة: الله متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، غني كامل، منزه عن خصائص المخلوقين.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

[الإخلاص: 1-4]

قل: المعرفة التي تُتلقى وتُبلَّغ

تبدأ السورة بأمر: ﴿قل﴾ [الإخلاص: 1]. لم تُترك معرفة الله لحدس النبي ﷺ ولا لاستنتاج السامعين، الله يأمر رسوله أن يعلن ما أوحاه إليه. في هذه الكلمة القصيرة تثبيت لمصدر الباب: نعرف الله بما عرّف به نفسه، ويبلغ الرسول ذلك كما أُمر. العقل يفهم الدلالة ويشهد آثارها، لكنه لا ينشئ لله نسبًا أو اسمًا أو كيفية من عنده.

وفي «قل» معنى البلاغ كذلك. التوحيد ليس سرًا ذوقيًا يحتفظ به صاحبه لنفسه؛ هو حقيقة تُقال، وتصحح بها تصورات الناس، وتواجه بها الأسئلة التي تحمل قياسات فاسدة. لكن البلاغ نفسه منضبط بألفاظ الوحي، لا يحتاج إلى زخرفة تجعل المعنى تابعًا لثقافة عابرة، ولا إلى جدل طويل في كل مقام. هذه السورة بأربع آيات أبلغ من مجلد، لأنها تقطع أصل الوهم قبل أن تتشعب فروعه.

هو الله أحد

الضمير «هو» يوجه السامع إلى المعلوم الذي يسأل عنه، ثم يأتي الاسم الجامع: الله، ثم وصف الأحدية. والأحد هنا أعمق من رقم في سلسلة؛ فالأعداد تتكرر وتقبل النظير، أما أحدية الله فتفرد لا يشاركه فيه أحد. لا شريك له في ألوهيته، ولا مثيل في صفاته، ولا منازع في أفعاله. كل وحدة تراها في المخلوق قابلة لأن يوجد لها شبيه، أما الله فليس كمثله شيء.

هذه الأحدية تحرر القلب من التوزع. إذا كان الرب أحدًا، فلا معنى لأن يوزع الإنسان غاية الخضوع بين جهات متعارضة، أو يجعل لغير الله حقًا لا يليق إلا به. والأثر المباشر أن يسقط من التصور أصل التعدد والمماثلة. قبل أن تسأل ماذا تعبد، اعرف أن من تعبده لا ثاني له في استحقاقه ولا شبيه له في كماله.

والأحدية تمنع كذلك أن نركب صورة الله من صفات منتزعة من المخلوق ثم نكبرها. أسماء الله كلها حسنى وصفاته كلها كمال، لكنها قائمة به على الوجه الذي يليق به. لا ينقسم كماله، ولا تتنازع صفاته، ولا

تكون الرحمة عنده ضعفًا، ولا العزة ظلمًا، ولا العلم اكتسابًا. وأصل ذلك أن المتصف بهذه الكمالات أحد لا يشبهه أحد.

الله الصمد

تعاد لفظة الجلالة في الآية الثانية، فلا يقال: هو الصمد فحسب، وكأن الاسم يثبت في القلب مرة أخرى قبل الصفة الجامعة. وقد دارت عبارات السلف في الصمد حول كمال السيادة والغنى، وأن الخلائق تصمد إليه في حوائجها. ويجمع هذه المعاني أن الله كامل في ذاته وصفاته، غني عن كل ما سواه، مفتقر إليه كل ما عداه.

إذا استقر معنى الصمد تبدلت طريقة الإنسان في حمل حاجته. الناس يُقصدون فيما يقدرون عليه، ويُشكر إحسانهم، وتُراعى الأسباب التي جعلها الله، لكنهم لا يصيرون صمدًا. كل من تقصده من الخلق يحمل حاجته هو أيضًا، وقد يريد ولا يقدر، أو يقدر ولا يريد، أو يغيب عنه ما يصلحك. وحده الله تُرفع إليه الحاجات من جهة الغنى الكامل والعلم الكامل والقدرة التي لا يعجزها شيء.

وليس الافتقار إلى الصمد موسمًا عند الشدة فقط. الإنسان محتاج في اللحظة التي يشعر فيها بالاكتفاء أكثر من حاجته حين يصرخ؛ لأن إحساس الاستغناء قد يحجبه عن حقيقة قيامه بالله. نبضة قلبه، وسلامة عقله، وثبات الأرض، وبقاء ما يحب؛ أمور تجري في خلفية وعيه حتى يتوهمها حقًا ذاتيًا. الصمدية تعيدها إلى أصلها: كل ما بك قائم بإمداده، وأنت لا تخرج عن الفقر إليه طرفة عين.

لم يلد ولم يولد

بعد إثبات الأحدية والصمدية تأتي جملتان تنفيان النسب من جهتيه. لم يلد: فلا يخرج منه ولد يشبهه أو يحمل امتداد ملكه، كما يجري في عالم الأحياء. ولم يولد: فليس حادثًا سبقه أصل أو نقله إلى الوجود. الولادة علامة حاجة وحدوث وفناء في المخلوق؛ يحتاج النوع إلى التناسل لأن أفراده تموت، ويحتاج المولود إلى من أوجده ورعاه. والله الحي الصمد منزه عن ذلك كله.

هذا النفي لا يرد على مقالة تاريخية بعينها فقط، مع أنه يبطل دعاوى من نسبوا إلى الله ولدًا، إنه يطهر بنية التفكير نفسها. البشر يربطون العظمة بالسلالة، والملك بالوريث، والوجود بسلسلة من الآباء والأبناء. السورة تقطع نقل هذه البنية إلى الله. ملكه لا يحتاج وارثًا، وبقاؤه لا يحتاج امتدادًا، ووجوده ليس حلقة في سلسلة. هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء.

ومن هنا يظهر تناسق السورة: الصمد لا يلد ولا يولد. الغني الكامل لا يحتاج إلى ولد، والذي لم يزل كاملًا لا يكون مولودًا. والنفي ليس فراغًا؛ هو حراسة للكمال المثبت. كلما نفى القرآن عن الله نقصًا، فتح للقلب باب تعظيم: لا ينام لأن قيوميته كاملة، ولا يلد ولا يولد لأن حياته وغناه وأحديته كاملة.

ولم يكن له كفوًا أحد

تختم السورة بنفي الكفء: لا مكافئ، ولا مماثل، ولا نظير. بعد أن نفت الأصل والفرع، تنفي كل مقارنة باقية. قد يقر إنسان بأن الله لم يلد ولم يولد، ثم يتصور صفاته على هيئة صفات البشر، أو يقيس فعله على حدود فعلهم، أو يعترض على حكمته بمقياس خبرته الضيقة. ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾ [الإخلاص: 4] تسحب الشرعية من هذه المقارنات كلها.

وحين يبلغ القارئ هذا النفي يتعلم كيف يتلقى سائر الأخبار عن الله: يثبت ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، ويفهم المعنى العربي الصحيح، من غير خوض في الكيفية ولا تشبيه. إن فُرِّغ اللفظ من معناه بحجة التنزيه ضاع هدى الخطاب، وإن صُورت الصفة على هيئة المخلوق هُدمت الأحدية. تحفظ السورة الطريقين معًا: إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

وهذا الضابط ليس حكرًا على حلقات الجدل العقدي. أثره يومي: حين تسمع أن الله يحب أو يرضى أو يغضب أو يسمع أو يرى، لا تحول اللفظ إلى صورة بشرية، ولا تفرغه من معناه. تتلقى الخبر كما يليق بمن ﴿م يكن له كفوًا أحد﴾ [الإخلاص: 4]، ثم تنظر إلى الحق الذي يطلبه منك: محبة، أو توبة، أو مراقبة، أو خشية. هكذا تبقى الصفة طريق عبادة، لا مادة تشبيه ولا لفظًا بلا حياة.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]

تنفي الآية إحاطة الأبصار به، ولا تنفي رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كما دلت عليها النصوص الصحيحة؛ فالإدراك أخص من مطلق الرؤية. وهي في هذا الموضع تحرس أصل السورة: الله لا يحيط به مخلوق، وهو محيط بخلقه، لطيف لا تخفى عليه الدقائق، خبير بظواهرهم وبواطنهم. من عرف هذا لم يجعل عجز حسه مقياسًا لنفي ما أخبر الله به، ولم يدّع إحاطةً بما لم يُحط به.

ميزان يصحبك

ولا تنقضي هداية سورة الإخلاص بانتهاء تلاوتها؛ فهي ميزان لكل خبر يرد عن الله. فإذا قرأت عن سمعه وبصره واستوائه ومعيته وقربه وسائر ما ثبت في الوحي، أثبتَّ ما أثبته الله لنفسه على الوجه اللائق

به، ولم تقس صفاته على خلقه، ولم تفرغ النص من معناه باسم التنزيه. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ميزان يحرس المعرفة.

سورة تعدل ثلث القرآن

قال النبي ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» (صحيح مسلم، 811)

ذكر أهل العلم في معنى ذلك وجوهًا، ومن أظهرها أن السورة جمعت باب التعريف بالله وتنزيهه في غاية الإحكام. ولا يلزم من معادلتها ثلث القرآن أن تغني عن سائر القرآن في هداياته وأحكامه وقصصه، أو أن تكرارها يقوم مقام قراءة الكتاب كله. الفضيلة تكشف وزن موضوعها وتركيزها، ولا تلغي حاجة العبد إلى بقية كلام الله.

وثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رجلًا كان يختم قراءته في الصلاة بسورة الإخلاص، فلما سئل قال: «لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها»، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه» (صحيح البخاري، 7375، وصحيح مسلم، 813). انتقلت المعرفة هنا إلى محبة: أحب السورة لأنها تعرّفه بربه، فجاءه الجواب بمحبة الله له. فالقلب إذا عرف كمال الله أحبه، وإذا أحب الله أحب كلامه الذي يعرّفه به، وأطال الوقوف عنده لا طلبًا لمعلومة جديدة كل مرة، بل طلبًا لزيادة المعرفة والمحبة.

ما الذي تخرجه السورة من القلب؟

تخرج أولًا وهم الشبيه. لا تسمح للإنسان أن يختار من تجربته صورة ثم يقول: هكذا الله. وتخرج وهم النسب، فلا أبوة ولا بنوة ولا سلالة إلهية. وتخرج وهم الحاجة، لأن الله الصمد. وتخرج وهم الشريك، لأنه أحد. هذه الأوهام قد تظهر عقائد معلنة، وقد تتسرب في صور أخفى: اعتماد على مخلوق كأنه لا يخيب، أو خوف منه كأنه يملك المصير، أو قياس لحكمة الله على معرفة بشرية ناقصة.

والمحك العملي ليس أن يكرر المرء عبارة ﴿الله أحد﴾ [الإخلاص: 1] ثم يعيش قلبه موزعًا بين مطلقات صغيرة. حين تضيق حاجته، هل يردها إلى الصمد مع أخذه بالأسباب؟ حين يستعظم قوةً بشرية، هل يتذكر أنه لا كفو لله؟ حين يعجز خياله عن تصور صفة ثابتة، هل يتواضع للوحي أم يجعل عجزه معيارًا للحقيقة؟ بهذه الأسئلة تتحول السورة من نص في فضائل التلاوة إلى ميزان للتصور.

بعد الإخلاص صار أصل الصورة مصفّى: إله واحد، حي قيوم، أحد صمد، منزه عن النظير والنسب. لكن القرآن لا يترك التنزيه في صيغة نفي مجردة؛ ففي خاتمة الحشر تجتمع أسماء متعددة للواحد الأحد

داخل سياق يهز القلب: قرآن لو نزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا، ثم ﴿هو الله﴾ [الحشر: 22-24] ثلاث مرات، ثم تسبيح السماوات والأرض.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

حين تنتهي السورة بالأسماء

تفتتح سورة الحشر بالتسبيح: ﴿**سبح لله ما في السماوات وما في الأرض**﴾ [الحشر: 1]، ثم تمضي في مشهد إخراج بني النضير، وكشف ظنونهم، وفضح وعود المنافقين، وبيان الفيء وأهله، وتصوير أخوة المهاجرين والأنصار، والتحذير من نسيان الله. وفي كل ذلك يتحرك التاريخ والمال والخوف والولاء تحت فعل الله وعلمه. ثم لا تختم السورة بتعليق سياسي أو قاعدة اجتماعية، بل ترجع بالأحداث كلها إلى معرفة الفاعل: هو الله.

هذا السياق يمنع أن تتحول الأسماء إلى قائمة منفصلة عن العالم. الملك والعزيز والجبار والحكيم ليست ألفاظًا تحفظ بعد أن تنتهي الوقائع؛ هي التي تكشف حقيقتها. الذين ظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله أخطؤوا في تقدير العزيز، والمنافقون الذين وعدوا ثم خذلوا لم يخرجوا عن علم الغيب والشهادة، وتقسيم الفيء ليس مالًا بلا مشرع ومالك. الأسماء خاتمة السورة لأنها مفتاح قراءتها، لا زينة في آخرها.

قبل الأسماء: قلب وجبل

قبيل المقطع تأتي أوامر توقظ المسؤولية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ [الحشر: 18]، ثم النهي عن مشابهة من نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ثم التفريق بين أصحاب النار وأصحاب الجنة. بعد ذلك يضرب القرآن مثل الجبل. كأن المشكلة ليست أن الوحي قليل البيان، بل أن القلب قد يسمع ما لو خوطب به جبل لتصدع ثم يبقى متماسك القسوة.

﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر: 21]

الجبل في الحس رمز الصلابة والثبات، ومع ذلك يصوره المثل خاشعًا متصدعًا من خشية الله لو أنزل عليه القرآن. والمقصود ألا يكتفي الإنسان بالإعجاب بالصورة، بل أن يقيس قلبه بها: ماذا صنعت فيه آيات

الوعد والوعيد والأسماء؟ هل ازداد بعد كل قراءة معرفةً وخضوعًا، أم صار تراكم السماع حجابًا جديدًا؟ هذه الآية تضع معيار الاستقبال قبل أن تسرد الأسماء: الاسم الذي لا يحرك الخشية لم يُتلقَّ بعد كما ينبغي.

ثم تأتي عبارة ﴿لعلهم يتفكرون﴾ [الحشر: 21]. فالخشوع هنا لا يعارض التفكر، والتفكر لا يبرد الخشية. القرآن يطلب عقلًا يتأمل وقلبًا يتصدع للحق. من الخطأ أن نجعل العلم بالأسماء تجربة وجدانية بلا تحقيق، كما يخطئ من يجعله تحرير مصطلحات لا يترك أثرًا في النفس. الجبل في المثل لا يكتب تعريفًا، لكنه يستجيب لثقل الخطاب، والإنسان مأمور أن يجمع الفهم والاستجابة.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 22-24]

هو الله: الواحد الذي تجتمع له الأسماء

تتكرر ﴿هو الله﴾ [الحشر: 22-24] في المقطع ثلاث مرات. في كل مرة يعود السامع إلى المسمى الواحد قبل أن يفتح له باب جديد من الأسماء. لا ننتقل من إله للرحمة إلى إله للملك ثم إله للخلق؛ هو الله في الجميع. هذه العودة المتكررة تحفظ وحدة الصورة وتمنع التجزئة التي يختار فيها الإنسان اسمًا يوافق هواه ويعزل ما سواه. الرحمن الرحيم هو الملك العزيز، والملك القدوس هو الخالق المصور، والعزيز هو الحكيم.

ويتكرر نفي الألوهية عن غيره مرتين: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: 22-23]. ليست الأسماء معلومات عن موجود عظيم فحسب؛ هي تعريف بالإله الذي يستحق أن يُفرد. كلما اتسعت المعرفة بأسمائه ضاق في القلب مجال الند. ومن عرف أن الغيب والشهادة له، وأن الملك له، وأن الخلق والتصوير له، لم يبق له عذر أن يمنح مخلوقًا حقًا من حقوق الإله. فالأسماء تنتهي إلى الإفراد، وإن لم يفصل المقطع أعمال العبادة.

عالم الغيب والشهادة... الرحمن الرحيم

يفتتح سيل الأسماء بإحاطة العلم: عالم الغيب والشهادة. ما غاب عن الخلق وما شهدوه داخل علمه، فلا يوجد وراء إدراك الناس مجال مجهول على الله. في سياق سورة كشفت سر المنافقين وظنون المحاصَرين

ونتائج لم تكن في حسبانهم، يجيء الاسم ليقول إن باطن الحدث وظاهره عنده سواء. قد يخفى الدافع عن الناس، وقد تنجح رواية كاذبة زمنًا، لكن الغيب ليس منطقة إفلات من علم الله.

ثم: هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مجيء الرحمة بعد العلم يحمي القلب من تصور المراقبة بوصفها تهديدًا وحده. الذي يعلم ضعفك وسرك هو الرحمن الرحيم، وعلمه بما فيك لا يمنعه أن يفتح لك باب التوبة. وفي المقابل، الرحمة ليست عاطفة عمياء؛ هي رحمة العليم الذي يضعها حيث تقتضي حكمته. هكذا يتساند العلم والرحمة في صورة واحدة.

للإنسان مع الغيب موقفان فاسدان: قد يخافه كأنه عالم مستقل تسكنه قوى متنازعة، أو يدعي أنه لا يؤمن إلا بما يشهد ثم يعيش أسير توقعات لا دليل عليها. ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ [الحشر: 22] يرد الغيب إلى علم الله، ويرد الشهادة كذلك؛ فما تراه ليس خارج ملكه، وما لا تراه ليس فراغًا تعبث فيه الأوهام. ثم يجيء الرحمن الرحيم ليجعل هذا العلم باب لجوء، لا مادة فضول عن المجهول.

الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن

تعود الآية: هو الله الذي لا إله إلا هو، ثم تفتح مجموعةً من الأسماء تبدأ بالملك. بعد مشاهد السورة في الحصون والأموال والتحالفات، يُذكر المالك الحق الذي لا ينازعه أحد. ملك البشر جزئي مؤقت، يقوم بأسباب قد تنقلب؛ أما ملك الله فشامل، لا يخرج عنه الذين أطاعوا ولا الذين عصوا. ومن هنا لا ينبغي أن تُقرأ تقلبات القوة كأنها كشف لمالك جديد، بل كحركة داخل ملك الواحد.

ثم ﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: 23]؛ تنزيه عن كل نقص وعيب، وسلامة كاملة في ذاته وصفاته وأفعاله. الملك في خبرة البشر قد يقترن بالظلم والاحتياج والخوف من زوال السلطان، فجاء الاسمان يمنعان إسقاط خبرة الملوك على ملك الله. هو ملك قدوس سلام، فلا يشوب حكمه نقص، ولا تحتاج عظمته إلى ظلم أحد؛ وبهذا تطهر صورة الملك من آفات المخلوقين.

ويأتي ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23]. ومن معاني اسم المؤمن: المصدّق لرسله بما أقام لهم من الآيات، والمؤمِّن عباده من ظلمه؛ ومن معاني المهيمن: الشهيد الرقيب الحافظ القائم على خلقه. وفي سياق الحشر يظهر أن الملك ليس غائبًا عن ملكه ولا مضطربًا فيه: يعلم السر والعلن، ويشهد ما تصنع القوى المتحالفة، ويحفظ أمره حتى ينفذ. أمام هذين الاسمين تسقط صورة عالم متروك تتدافع فيه القوى بلا شاهد ولا حافظ.

العزيز الجبار المتكبر

ثم تصعد النبرة إلى العزة والجبروت والكبرياء. العزيز الذي لا يُغلب، والجبار الذي له الجبروت والعلو والقهر ونفوذ الأمر، والمتكبر الذي له الكبرياء حقًا. هذه الأسماء إذا أطلقت على المخلوق بلا حق كانت باب طغيان؛ لأن المخلوق ضعيف يتكلف ما ليس له. أما الله فالكبرياء له كمال؛ إذ لا أحد فوقه، والعزة له حق؛ إذ لا يعجزه شيء، وجبروته من كمال ملكه لا من ظلم أو حاجة.

وفي سياق الحشر تظهر دلالة هذه الأسماء بجلاء: قوم ظنوا حصونهم مانعتهم من الله، فجاءهم ما لم يحتسبوا. ليست العبرة أن كل حصن يسقط بالطريقة نفسها، ولا أن ننزل الواقعة على كل حدث معاصر؛ العبرة أن العزة البشرية لا تستقل أمام العزيز. قد يؤخر الله أثر قدرته لحكمة، وقد يمهل، لكن الإمهال لا يحول المخلوق إلى ند. من عرف العزيز لم يفتن ببريق القوة، ولم يقرأ التأخر عجزًا.

ويختم هذا السطر بالتنزيه: ﴿**سبحان الله عما يشركون**﴾ [الحشر: 23]. بعد أسماء العظمة لا يُترك القلب مأخوذًا بالقوة وحدها؛ يسبح الله وينزهه عن كل شريك وعن كل تصور لا يليق. التسبيح حركة ملازمة للمعرفة: كل اسم يثبت كمالًا، وكل «**سبحان الله**» تنفي عنه ما ألصقته به أوهام البشر. ومن جمع الإثبات والتنزيه سلم من إله متخيل صنعه هواه.

الخالق البارئ المصور

في الآية الأخيرة يعود ﴿**هو الله**﴾ [الحشر: 24] ثم تنتقل الأسماء إلى أصل ظهور المخلوقات: الخالق البارئ المصور. لا تفصل السورة مراحل فلسفية للخلق، لكنها تضع وجود الأشياء وتمايزها وصورها تحت فعل الله. الذي أخرج كل مخلوق على ما شاء من هيئة وقدر هو نفسه الملك العزيز الحكيم. وما تراه من تنوع الصور ليس مادة مستقلة شكلت نفسها، بل أثر فعل الخالق البارئ المصور.

وترد هذه الأسماء الإنسان إلى حد العبودية في نظره إلى جسده وصورته وقدراته: لم ينشئ نفسه من العدم، ولم يختر أصل خلقته. له أن يعالج مرضًا ويهذب عادة ويطور قدرة، لكن ما وهبه الله أمانة لا سبب استعلاء، وصورة المخلوق ليست معيار كرامته عند الخالق.

ويمنع الجمع بين الخالق والمصور اختزال الخلق في لحظة بداية بعيدة. الصورة التي عليها الموجود، والخصائص التي تميزه، والنظام الذي يجمع أجزاءه؛ كلها ترد إلى الله. فمن عرف هذه الأسماء قرأ العالم بوصفه مخلوقًا مصورًا، لا كتلة صامتة استغنت عن خالقها بعد الوجود.

له الأسماء الحسنى

بعد هذا السيل لا تقول الآية: هذه أسماء الله، بل ﴿له الأسماء الحسنى﴾ [الحشر: 24]. كل اسم ثبت له فهو بالغ في الحسن، دال على كمال لا نقص فيه. والحسن لا ينفصل عن صدق الاسم؛ فلا نسمي الله بما لم يسم به نفسه أو يسمه به رسوله ﷺ، ولا نحول الأسماء إلى ألقاب نبتكرها لمجرد أن معناها يعجبنا. الباب توقيفي في أصله، غني بما جاء في الوحي.

قال النبي ﷺ:

«إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» (صحيح البخاري، 2736؛ صحيح مسلم، 2677)

لا يليق أن يُفهم الإحصاء عدًّا أجوف ينتهي عند رقم. القرآن نفسه يربط الأسماء بالدعاء: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]، ويربطها في خاتمة الحشر بالخشية والتسبيح. ومن معاني الإحصاء التي ذكرها أهل العلم: حفظ الأسماء الثابتة، وفهم دلالاتها، ودعاء الله بها، والتعبد له بمقتضاها على قدر ما دل عليه النص. ولا يعني الحديث حصر أسماء الله كلها في التسعة والتسعين؛ إنما يثبت لهذه الجملة فضيلة الإحصاء الموعود بها.

وقد يقع الانحراف مع صحة القائمة. يحفظ المرء أسماء كثيرة، ثم إذا نزل به الخوف تصرف كأن الحفظ ليس لله، وإذا أذنب تصرف كأن الغفور بعيد، وإذا ظلم تصرف كأن المهيمن لا يرى، وإذا فتنته قوة بشرية نسي العزيز. الإحصاء الذي يبني المعرفة يجعل الاسم حاضرًا في موضعه؛ لا يستدعي الرحيم ليأمن من الحساب، ولا يستدعي الجبار ليقنط من الرحمة، بل يعرف الواحد بجميع ما عرّف به نفسه.

يسبح له ما في السماوات والأرض

تنتهي الأسماء بحركة الوجود كله: يسبح له ما في السماوات والأرض. بدأت السورة بالتسبيح الماضي: ﴿سبح لله﴾ [الحشر: 1]، وتختم بالتسبيح الجاري: ﴿يسبح له﴾ [الحشر: 24]. وبين الافتتاح والختام مرت أحداث تبدو في الظاهر صراعًا بشريًا، لكنها بقيت داخل كون يسبح لله. الإنسان حين يعصي لا يخرج من ملك الله، لكنه يشذ بإرادته عن عبودية الطاعة التي عليها الوجود، فيصبح اختياره أثقل قبحًا.

التسبيح بعد الأسماء ليس فاصلة صوتية. من عرف القدوس نزهه، ومن عرف العزيز لم ينسب إليه العجز، ومن عرف الحكيم لم ينسب فعله إلى العبث، ومن عرف الرحمن لم يصفه بالقسوة الجوفاء. كل

شبهة في الله تحمل في أصلها نقصًا نُسب إليه، والتسبيح يرد النقص عن ساحته. لكنه تسبيح على علم، لا ترديد كلمة مع بقاء التصور الفاسد.

وتختم الآية باسمين يضمان المشهد كله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24]. يسبح الوجود لعزيز لا يُغلب، حكيم لا يضع شيئًا عبثًا. ليست القوة والحكمة بابين متنازعين، بل كمالين للواحد الأحد؛ ولذلك يستطيع القلب أن يهاب ويثق في الوقت نفسه.

أنت كما أثنيت على نفسك

مهما اتسع علم العبد بالأسماء بقي علمه محدودًا، وثناء الله على نفسه أبلغ من ثناء الخلق كلهم. وفي سجود النبي ﷺ جاء الاعتراف الذي يحفظ المعرفة من الغرور:

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (صحيح مسلم، 486)

هذا الدعاء يرد القلب إلى الأصل: الله أعلم بنفسه، وأصدق ثناءً على نفسه. كلما تعلم العبد اسمًا ازداد علمًا بعجزه عن الإحاطة، لا لأن الأسماء غامضة بلا دلالة، بل لأن الكمال الذي تدل عليه أعظم من أن يحيط به مخلوق. المعرفة الصحيحة تجمع وضوح المعنى وتواضع العارف: يفهم ما بلغه الوحي، ويقف حيث وقف، ولا يدعي أنه أحصى الثناء كله.

وفي الدعاء كذلك انتقال من العلم إلى اللجوء: برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك. الأسماء والصفات ليست موضوعًا خارجيًا يصفه الباحث من بعيد؛ العبد داخل آثارها، يرجو ويرهب ويستعيذ. ولهذا كان السجود موضع هذا الثناء: أعلى معرفة العبد بربه تضع جبهته في الأرض، لا ترفع نفسه على الناس.

حين ينتهي اللقاء إلى التسبيح

يعود القارئ في آخر اللقاء إلى الموضع الذي بدأ منه، لكن قلبه لم يعد كما دخل. يقول في صلاته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد رأى كيف تتساند الأسماء ولا تتنازع، وكيف يحرس التنزيه الإثبات، وكيف تنتهي المعرفة إلى عبادة واستعانة وخشوع. ثم يقف أمام خاتمة الحشر، فلا يملك أن يعامل الأسماء قائمةً تحفظ؛ فالملك والعلم والرحمة والعزة والحكمة قد صارت مفاتيح يقرأ بها العالم ونفسه.

وحين يبلغ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يجد نفسه داخل عالم لا يصمت عن ربه. ما حوله يسبح، والوحي يعرّفه بمن يسبح له، وسورة الإخلاص تحرس تصوره، وآية الكرسي ترد

ضعفه إلى القيوم، والفاتحة تفتح له باب الخطاب. وهنا يصير أثر القراءة عمليًا: أن يسمع الاسم في مقامه، ثم يجيب بما يليق به.

فإذا فتحت المصحف بعد ذلك، فلا تسأل عن معنى الاسم وحده. انظر أين جاء، وما الذي جاوره، وما الباطل الذي نزهه السياق عنه، وما الحق الذي أثبته، وما الأثر الذي طلبه من قلبك. بهذه القراءة لا تبقى المعرفة بالله فصلًا في كتاب؛ تصير الطريقة التي تقرأ بها كلامه والحياة التي خلقها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24]

هُوَ اللَّهُ

كيف يبني القرآن علم العبد بربه؟

والثمرة الأرق من هذا اللقاء أن الأسماء لا تعود ألفاظًا يمر بها اللسان؛ يصير الحمد جواب محبة، والتسبيح جواب تعظيم، والدعاء رجوعًا إلى من عرفه القلب. فإذا قال العبد: الله، لم يستحضر معنى بعيدًا، بل ربًّا كاملًا لا شبيه له، حيًّا قيومًا لا يغيب، أحدًا صمدًا تقصده الحاجات. وكلما اتسعت معرفته بكماله، ازداد حبًّا له وحياءً منه، ولم يعد الوقوف بين يديه عادةً تتكرر، بل لقاءً يتجدد.

رَبُّ الْعَالَمِينَ

قد يغلق العبد المصحف ثم يفتح هاتفه على خبر يقلقه، أو يراجع حسابه فيضيق، أو ينتظر قرارًا تتعلق أسبابه بأيدي غيره. عندها قد يبدو العالم في شعوره سننًا تجري بذاتها، والسوق رازقًا مستقلًا، والأحداث تدافعًا بلا رب. لكن رب العالمين هو خالق الأسباب ومدبرها: فيبذل العبد السبب لأنه مأمور به، ولا يعلّق قلبه به لأنه لا يستقل بشيء؛ فالخلق يدل على الخالق، والرزق على الرزاق، والأمر والتدبير على رب لا يغيب عن شأن من شؤون خلقه. وعندئذ يظهر أثر المعرفة: ممن يخاف؟ وممن يرجو؟ ولأجل من يختار؟

وإذا كان الله خالق كل شيء، فكيف يستقل مخلوق بالقلب؟ وإذا كان له الخلق والأمر، فكيف يُتلقى أمره كأنه رأي بين الآراء؟ وإذا كان يدبر الأمر ويرزق، فلمن يكون التوكل والذل والرجاء؟ والعلم بالخلق والتدبير والرزق إن لم يثمر حمدًا وشكرًا بقي خبرًا صحيحًا لم يبلغ أثره.

ولا يخاصم القرآن الأسباب التي خلقها الله، ولا يدعو إلى قراءة متعجلة للغيب، ولا يجعل التوكل ستارًا للعجز. إنما يرد السبب إلى مرتبته: مخلوقًا يجري فيه أمر الله، مأمورًا بالأخذ به، عاجزًا عن الاستقلال بالنتيجة. فتعمل الجوارح بالأسباب، ويبقى القلب مع المدبر؛ ويطلب العبد رزقه من أبوابه، ويبقى افتقاره إلى الرزاق؛ ويرى النعمة قبل أن توقظه المصيبة إليها. فالذي بدأ الخلق هو رب ما يجري فيه من عطاء ومنع وتحول.

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

قبل أن يكون شيء

تتزاحم الأشياء في الحس حتى يبدو الوجود مكتفيًا بنفسه. نرى سماءً وأرضًا وأجسامًا وأحياءً وقوى، ثم يعتاد العقل حضورها فيكاد ينسى السؤال الأول: من أين جاء هذا كله؟ القرآن لا يترك الكثرة تحجب الأصل، ولا يسمح للمخلوق أن يحتل في التصور موضع الخالق. يردّ الموجودات، على اختلافها واتساعها، إلى فعل واحد لا يشاركه فيه أحد: الخلق لله.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: 62-63]

لم تقل الآية إن الله خلق أشياء كثيرة، بل قالت: «كل شيء». هذا العموم يفصل بين طرفين لا يلتبسان: الله الخالق، وكل ما سواه مخلوق. فلا قوة في الكون خرجت من ذاتها، ولا مادة سبقت ربها، ولا قانون أنشأ نفسه، ولا روح تملك أصل وجودها. ما سوى الله مفتقر إليه في أن يكون، ثم في أن يبقى، ثم في كل ما يطرأ عليه من حال.

وجاءت ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ بعد الخلق لتمنع أن يفهم الخلق بوصفه لحظة ماضية انقطعت صلتها بالحاضر. الذي خلق لم يسلّم ملكه إلى مخلوق، ولم يخرج شيء من حفظه وتدبيره. ثم ذكرت المقاليد، وهي مفاتيح السماوات والأرض وخزائنها وأزمتها، فكأن الآية تنقل القلب من أصل الإيجاد إلى دوام السلطان: البداية له، وما وراء الأبواب المغلقة له، والأمر كله راجع إليه.

الفارق الذي لا يجوز أن يذوب

أصل المعرفة هنا ليس مجرد الاعتراف بأن الله أقوى الموجودات؛ لأن هذه العبارة تجعل الخالق فردًا داخل جنس الموجودات، يزيد عليها قوة. القرآن يبني فارقًا أعمق: هو الخالق، وما عداه مخلوق. قدرته كاملة غير مكتسبة، وعلمه محيط لا يسبقه جهل، وهو الغني عما سواه. أما المخلوق، مهما بلغ، فوجوده وعلمه وقدرته وحدوده كلها عطايا مقدرة.

بهذا الفارق تسقط صور كثيرة من التأليه الخفي. قد لا يسجد الإنسان للطبيعة، لكنه يتحدث عنها كأنها تمنح وتمنع وتختار وتنتقم بذاتها. وقد لا يعبد التقنية، لكنه يسلّم لها في قلبه بقدرة لا حد لها على إنقاذ الإنسان. وقد لا يصرح بتأليه ذاته، ثم يعيش كأن إرادته تصنع مصيره من غير افتقار. كلمة «**خالق كل شيء**» تعيد كل قوة إلى موضعها: آية من آيات الخالق، وسببًا من أسبابه، ومخلوقًا لا يتجاوز حده.

ولا يعني هذا احتقار المخلوقات أو تعطيل البحث في خصائصها. العالم جدير بالدراسة لأنه خلق محكم، والسبب جدير بالاستعمال لأن الله أودع فيه منافع وآثارًا. لكن الفرق بين دراسة السبب وعبادته أن العالم المؤمن يزداد بمعرفته تواضعًا، ويرى في انتظام الأشياء حكمة الخالق، ولا يحول ما اكتشفه إلى ستار يحجب عنه من خلقه.

من الخلق إلى التوكل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: 3]

يجمع هذا السؤال الخلق والرزق في حجة تقود إلى الإفراد. لا يطلب جوابًا ذهنيًا فحسب؛ بل يوقظ القلب من انصرافه: إذا لم يكن خالق غير الله، ولم يكن رازق سواه، فكيف تُجعل لمخلوق كفاية تستقل به عن ربه؟ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تكشف انقلاب الوجهة بعد وضوح الحقيقة، وتفتح طريق التوكل على الخالق.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38]

لا تكتفي الآية بإلزام المشرك بإقراره أن الله خلق السماوات والأرض؛ بل تنقل الإقرار إلى ساعة الضر والرحمة. فالذي خلق هو الذي يملك كشف الضر وإمساك الرحمة، وما يدعى من دونه لا يملك استقلالًا في واحد منهما. هنا تظهر ثمرة الخلق في كلمة يعيش بها المؤمن: «**حسبي الله**». ليست إعلانًا عن ترك العلاج أو النصرة، بل نفي أن يكون شيء من الأسباب كافيًا عن الله.

ويحتاج القلب إلى هذا الانتقال؛ لأنه قد يسلم بالخالق في درس العقيدة، ثم يبحث عند الخوف عن كفاية أخرى. يظن أن صلة نافذة، أو مالًا مدخرًا، أو مكانة اجتماعية يمكن أن تجعل الضر بعيدًا والرحمة مضمونة. الآية لا تحرمه من أسباب الحماية، لكنها تسأله عمن يملك نهايتها. فإذا استقرت الإجابة، أخذ السبب بكرامة، ودعا ربه بصدق، ولم يذل لما لا يملك له كشفًا ولا رحمة.

السنة تردُّ السؤال إلى بدايته

سأل أهل اليمن النبي ﷺ عن أول هذا الأمر، فلم يبدأ لهم بسلسلة من المخلوقات، بل ردهم إلى من لم يسبقه شيء. عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**» (صحيح البخاري، 3191).

في الجملة الأولى ينقطع توهم الأزل عن كل ما سوى الله. لم يكن الكون شريكًا له في القدم، ولم تكن المادة أصلًا قائمًا معه، ولم تكن سنن الكون مستقلة عن خلقه وأمره. كان الله كاملًا بأسمائه وصفاته، غنيًا عن العالم، ثم خلق ما شاء بحكمته. ولم يخلق ليستكمل نقصًا؛ فالخلق من آثار قدرته وحكمته.

وحين يستقر هذا في القلب، لا يعود الإنسان مركز الوجود الذي يطالب ربه بأن يفسر له كل شيء على وفق رغباته. إنه مخلوق مكرم، لكنه عبد. يفرح بما آتاه الله من عقل وقدرة، ثم يعرف أن كرامته لا تأتي من ادعاء الاستقلال؛ تأتي من صدق العبودية للخالق الذي خلقه وكرمه وكلفه، ودله على طريق معرفته.

أن تعيش مخلوقًا لله

للمعرفة بالخالق أثر في النظر إلى النفس. عيوبك ليست قدرًا يبيح لك الاستسلام، ومواهبك ليست صنعك المحض حتى تتعالى بها. أنت مخلوق قادر على التعلم والعمل، وقد جعل الله لك إرادة وقدرة تُحاسب على ما تختاره بهما.

وما فيك من قوة أمانة، وما فيك من ضعف باب افتقار، وما يصيبك من تحول يذكرك أنك لست رب ذاتك.

ولها أثر في النظر إلى الناس. من علم أنهم مخلوقون لم يعبد صورتهم، ولم يحتقر ضعفهم، ولم يسلبهم حقوقهم. السيد والتابع، الغني والفقير، العالم والجاهل، كلهم يقفون على أرض العبودية نفسها. تفاوتهم واقع، لكنه لا ينقل أحدًا منهم إلى مرتبة يملك بها رقاب الآخرين أو ضمائرهم من دون حق.

ولها أثر في الخوف. المخلوق قد يملك ضررًا حقيقيًا في حدود ما أقدره الله عليه، ولذلك تؤخذ الحيطة ويُدفع الظلم. لكن الخوف ينقلب عبودية حين ينسى القلب أن المؤذي نفسه مخلوق، وأن قدرته محدودة، وأن أبواب النجاة ليست في يده وحده. معرفة الخالق لا تلغي حساب القوة؛ تمنع القوة من أن تصير إلهًا في التصور.

وحين ينظر العبد حوله بعد هذه الآيات، لا يرى عالمًا ميتًا. يرى أشياء مخلوقة تشهد بحدوثها وافتقارها، ويرى نفسه في صفها، ثم يرفع قلبه إلى الخالق. غير أن سؤالًا يبقى: هل خلق الله العالم ثم مضى كل شيء بقوة البدايات؟ يأتي القرآن بالجواب في مشهد الليل والنهار والشمس والقمر: الخلق له، والأمر له.

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ

مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]

آية تتحرك ولا تعرض كونًا ساكنًا

لا تعرض الآية السماء والأرض كلوحة معلقة، بل كعالم يتحرك تحت الربوبية: خلق في ستة أيام، واستواء على العرش على الوجه اللائق بجلال الله، وليل يغشى النهار، ونهار يتبعه حثيثًا، وشمس وقمر ونجوم مسخرات بأمره. ثم تأتي الجملة التي تجمع المشهد كله: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾. كأن كل حركة سبقتها شاهد على هذه الملكية الجامعة.

يثبت المؤمن ما أثبته الله لنفسه من الاستواء على عرشه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. لا يحول اللفظ إلى صورة من صور المخلوقين، ولا يفرغه من معناه فرارًا من الوهم. والآية نفسها تربي على هذا الاتزان: إثبات يورث التعظيم، وتنزيه يحرس القلب من قياس الخالق على خلقه.

وخلق السماوات والأرض في ستة أيام لا يدل على عجز عن إيجادها دفعة؛ فالقرآن يقرر أن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. خلقها على ما شاء من التقدير والحكمة، وفي ذلك ما يدل على الإحكام، ويعلّم العبد أن كمال القدرة لا ينافي جريان الأفعال على سنن قدرها الله.

الليل لا يزاحم النهار

﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا﴾ حركة نراها كل يوم حتى يقتل الاعتياد دلالتها. لا يتأخر الليل عن ميقاته لأن قوة اعترضت طريقه، ولا يثبت النهار في ناحية من الأرض احتجاجًا على الغروب. التعاقب المستمر ليس نزاعًا بين قوتين، بل تسخير محكم. وما نسميه نظامًا كونيًا هو في القرآن آية على دوام الأمر، لا بديلًا عن الآمر.

والشمس والقمر والنجوم، مع ضخامتها وبعدها وما يتصل بها من منافع، وُصفت بأنها ﴿**مسخرات بأمره**﴾. هذا اللفظ ينزع عنها الألوهية التي علقت بها في تاريخ البشر، وينزعها كذلك عن الصورة الحديثة التي تجعل انتظامها استقلالًا. والتسخير لا يبطل ما أودع الله فيها من سنن؛ بل يعرّف بمن خلقها وأبقاها جارية بأمره.

حين ينظر المؤمن إلى شروق الشمس لا يحتاج إلى إنكار التفسير الفلكي حتى يؤمن، كما لا يجوز أن يجعل التفسير الفلكي نهاية السؤال. معرفة الكيفية القريبة لا تستغني عن معرفة من خلق الأجرام وأودع فيها خصائصها وأقام نسبها. العلم يصف ما أدركه من الحركة، والوحي يعرّف بربها الذي خلقها وسخرها.

له الخلق وله الأمر

جاءت ﴿ألا﴾ للتنبيه على حقيقة قد يحجبها اعتياد المشاهد: الخلق له، والأمر له. لم يخلق العالم ثم يفوض تدبيره إلى غيره، ولا يملك أحد أن يرد ما أمضاه الله كونًا. وقد سبقت الجملة صور التسخير والتعاقب، فدل السياق على أن ما خلقه الله لا يخرج عن سلطانه، وأن حركة العالم جارية بأمره.

وملك الأمر كله لله؛ فلا يستقل مخلوق بالتكوين أو التدبير، ولا يخرج شيء عن قضائه الكوني. ومن عرف ربه خالقًا مدبرًا تلقى أمره بالتسليم، مع بقاء الفرق بين الأمر الكوني النافذ والأمر الشرعي الذي يطيعه العبد أو يعصيه ويحاسب على اختياره.

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: 82-83]

لا تصف الآية مشقة تسبق الفعل، ولا مقاومة تمنع نفاذه؛ فإذا أراد الله شيئًا كان كما أراد. ومع ذلك لا يبيح هذا للعبد أن يتكلم في حكم الله بغير علم، أو يزعم أنه عرف حكمة كل تفصيل بعينه. يكفيه أن يعلم أن الله لا يعجزه شيء، وأنه حكيم في أفعاله وأحكامه، وأن خفاء وجه الحكمة على العبد ليس دليلًا على انتفائها.

كون مطيع وعبد ممتحن

الكون كله من جهة خلقه وتكوينه منقاد لأمر الله؛ والنار وخصائصها وأثرها بخلقه، والماء لا يمنح الحياة من ذاته، والجسد لا يضمن نبضه. والإنسان أيضًا داخل في ملك الله وقدره، لكنه كُلّف وأعطي

إرادة وقدرة يطيع بهما أو يعصي، وأقيمت عليه الحجة. لذلك لا يصح أن يحتج بالقدر ليعطل مسؤوليته، ولا أن يزعم أن وقوع المعصية في ملك الله يجعلها محبوبة له شرعًا.

هنا يلزم التفريق الذي يحفظ الاعتقاد والعمل: ما شاء الله كونًا وقع، وما أمر به شرعًا أحبه ورضيه، وقد يعصيه العبد بإرادته التي خلقها الله فيه ويحاسبه عليها. لا يخرج العصيان عن ملك الله، ولا يتحول بسبب وقوعه إلى طاعة. بهذا يسلم القلب من الجبر الذي يلغي المسؤولية، ومن توهم وجود مجال في الكون خارج ربوبية الله.

وأثر هذه المعرفة أن يعيش الإنسان في عالم كله مملوك لرب واحد. لا يقسم حياته بين شأن ديني يذكر فيه الله، وشأن دنيوي يظن أن القوى فيه تعمل وحدها. جسده وسوقه وبيته وسماؤه وتغير ليله ونهاره كلها في ملك الرب. يخطط ويزرع ويبني ويحاسب، لكنه لا يسلّم قلبه لما صنعته يداه، ولا يظن أن نجاح الخطة أخرجها من الأمر الإلهي.

تبارك الله رب العالمين

تختم الآية بهذا الثناء: ﴿**تبارك الله رب العالمين**﴾. تعالى الرب وتعاظم، وكثر خيره وبركته. فلا ينتهي مشهد الخلق والأمر إلى خوف من قوة مجردة، بل إلى تعظيم رب العالمين الذي أحكم خلقه وأمره. ومن عرف أن الخلق والأمر له لم يعد يسأل فقط: ما الذي سيحدث؟ بل يسأل: كيف أعبد ربي وأحسن العمل فيما يجري؟

دعاء يناسب هذا الكون

﴿**ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: 55-56]

لم ينتقل السياق بعد ﴿**له الخلق والأمر**﴾ إلى جدل نظري، بل إلى الدعاء. الذي خلق ودبر هو الذي يُدْعَى تضرعًا وخفية، خوفًا وطمعًا. كأن معرفة السيادة على الكون تفتح للعبد باب الكلام مع ربه: لا يحتاج أن يرفع صوته لمن لا يسمع، ولا أن يتكلف طريقًا إلى من بيده الأمر. يستتر بالدعاء، وربه يسمعه ويعرف فقره.

وجاء النهي عن الإفساد بين الأمرين بالدعاء. فمن عرف أن الأرض خلق الله، وأن إصلاحها بأمره، لم يتعامل معها كغنيمة بلا عهد. العبث بالناس والموارد والحقوق يناقض معرفة الرب، ولو حفظ صاحبه

ألفاظ الخلق والأمر. الأثر الصادق أن يدعو العبد ربه، ثم يتحرك في الأرض على حدوده: يعمر ولا يفسد، ويستعمل ولا يطغى، ويرجو الرحمة مع الإحسان.

غير أن قولنا إن الأمر لله قد يبقى عامًا حتى يدخل العبد في أحداث تتعقد أسبابها، وتتأخر نتائجها، وتبدو بعض حلقاتها مضادة لبعض. عندئذ يحتاج إلى معنى التدبير: أن رب العالمين لم يخلق ابتداءً ثم يترك ما خلق؛ بل يصرف الأمر مرحلة بعد مرحلة، وقد يأتي المخرج من طريق لم تره العين أول الأمر.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

قد يعترف الإنسان بأن الله خلق العالم، ثم يعيش تفاصيل يومه كأن الخلق كان افتتاحًا بعيدًا لا صلة له بما يحدث الآن. فإذا مرض لم ير إلا الطبيب والدواء، وإذا نجح لم ير إلا مهارته، وإذا تبدلت الأحوال لم ير إلا ما ظهر من تدافع القوى والأسباب. وهنا تقوم المفارقة: إن كان الله يدبر الأمر، فلماذا أُمرت أن أخطط وأسعى؟ وإن كان لعملي أثر، فأين يظهر تدبير الرب؟ يضع القرآن السؤال أمام القلب، ثم يرده إلى قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3]

التدبير هو تصريف شؤون الخلق وإجراء الأمور على ما تقتضيه الحكمة. جاء في الآية بعد الخلق والاستواء، وأعقبه نفي الشفاعة المستقلة، ثم الأمر بالعبادة. فليس تدبيرًا محايدًا للعالم؛ بل فعل الرب الذي لا يملك أحد أن يتصرف في ملكه استقلالًا، وتدل ربوبيته وتدبيره على استحقاقه أن يُعبد وحده.

والتدبير لا يعني أن الأحداث تسير دائمًا على الصورة التي يطلبها العبد. قد يقدر الله عطاءً أو منعًا، وقد يغلق بابًا ويفتح غيره، وقد يظهر للعبد بعد حين أن خطةً حسبها نجاته لم تكن كذلك. نحن نؤمن بكمال التدبير، لكننا لا ندعي معرفة الحكمة الخاصة في كل واقعة؛ فبين الثقة بالله وبين الجرأة على الغيب حد يجب حفظه.

من السماء إلى الأرض

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: 5-6]

توسع الآية أفق التدبير حتى لا يحصره الإنسان في حاجته العاجلة. الأمر ينزل من السماء إلى الأرض، ويعرج إليه في مقياس يجاوز عدّ البشر، ثم يختم المقطع بالعلم والعزة والرحمة. وربك الذي يدبر الأمر عالم الغيب والشهادة، فلا يفوته ما غاب عنك، وهو العزيز، فلا يعجزه ما تعقد، وهو الرحيم، فعزته مقرونة برحمته.

وحين يقيس الإنسان التدبير بساعته وحدها يضيق. يريد جواب الدعاء في الوقت والصورة اللذين حددهما، ويريد أن يرى ثمرة الإصلاح قبل أن يتعب، وأن يفهم خاتمة القصة من أول فصل. الآية تعلمه أن الزمن الذي يحسب به جزء من الخلق، وأن تأخر ما يطلب لا يعني توقف التدبير. عليه أن يحسن اليوم الذي يملكه، وأن يترك للرب علم المدى كله.

الأسباب داخل التدبير لا خارجه

من إحكام التدبير أن تجري أشياء كثيرة بأسباب معلومة. ينزل المطر بأحوال خلقها الله في السحاب والرياح، وقد يشفى المريض بعلاج قدّره الله، ويأتي الرزق بسعي وعقد ومهارة. والقرآن لا يطلب أن نسمي ترك السبب توكلًا؛ فقد أمر بالأخذ بالقوة والإعداد والضرب في الأرض. لكنه يمنع السبب من أن يتضخم حتى يحجب المدبر.

السبب لا يخلق أثره مستقلًا. قد يوجد ولا توجد النتيجة، وقد تضعف الوسيلة ويجيء من ورائها خير لم يكن في الحساب. هذا لا يجعل المعرفة البشرية عبثًا؛ بل يجعلها متواضعة. نحسن اختيار الأسباب بحسب ما علمنا، ونراجع الأخطاء، ثم نعلم أن وجوه الواقع أوسع من إدراكنا، وأن ربنا يحيط بما لا نحيط به ويدبر ما لا نملكه.

كل يوم هو في شأن

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]

تفتح الآية مشهد افتقار لا ينقطع: من في السماوات والأرض يسألونه، وهو سبحانه كل يوم في شأن من شؤون خلقه؛ يحيي ويميت، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، على ما شاء من الحكمة. لا يشغله شأن عن شأن، ولا تختلط عليه الأصوات والحاجات، ولا تنقص خزائنه كثرة السؤال.

لهذا لا يكون الدعاء هامشًا على التدبير، بل عبادة داخلة فيه. يدعو العبد ربه، ويأخذ بما أذن له من الأسباب، وقد يكون الدعاء نفسه سببًا من الأسباب التي قدرها الله. ولا يجعل الدعاء وسيلةً آلية يفرض بها الصورة التي يريدها؛ بل يقف به عبدًا يسأل العليم الرحيم، ويوقن أن الإجابة تجري بعلم الله وحكمته، لا على قدر تصوره الضيق.

لهذا يجتمع في المؤمن أمران يظنهما المضطرب متناقضين: عناية شديدة بالفعل، وسكينة بعد بذل الوسع. لا يقول: ما دام الله يدبر فلن أخطط؛ لأن التخطيط من الأسباب التي أمر بها. ولا يقول: ما دمت خططت فلا بد أن تقع النتيجة التي رسمتها؛ لأن الخطة نفسها مخلوقة محدودة داخل تدبير أوسع.

والله غالب على أمره

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]

تأتي هذه الجملة في قصة يوسف عند مشهد يبدو صغيرًا في ظاهره: رجل من مصر يشتري غلامًا ألقي في الجب، ثم يقول لامرأته أن تكرم مثواه. لا يرى المشاهد في تلك اللحظة نهاية الطريق؛ يرى طفلًا انتقل من كيد إخوته إلى بيت غريب. لكن الآية تكشف تدبير الله وراء الحلقات: ﴿كذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾.

لم يمنع تدبير الله وقوع الجب والرق والسجن، بل سار بيوسف من خلالها إلى التمكين، مع بقاء كل ظالم مسؤولًا عن فعله. وهذا يحرر الإيمان من الصورة الساذجة التي تجعل حفظ الله وتدبيره مرادفين لطريق بلا ألم. قد يكون الألم من ظلم البشر، وقد يكون ابتلاء، لكن وجوده لا يعني أن الأمر خرج عن تدبير الرب.

وفي الوقت نفسه لا يحق لنا أن نحول كل خسارة إلى وعد بتمكين دنيوي مماثل لقصة يوسف. القصة وحي يفسر ما جرى فيها، أما وقائعنا فلا نملك غيب خواتيمها. ما نتعلمه هو الأصل: الله غالب على أمره، وأن الأسباب المتعارضة في نظرنا يمكن أن تدخل في قدر واحد، وأن واجب العبد الصدق والصبر والعمل لا اختراع نبوءة عن المستقبل.

دعاء بعد كل صلاة

كان النبي ﷺ يغرس معنى التدبير في أذكار تتكرر بعد الفرائض. عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (صحيح البخاري، 844؛ صحيح مسلم، 593).

يخرج المصلي من عبادة بذل فيها وسعه، ثم يعلن أن العطاء والمنع ليسا بيد الأسباب استقلالًا. «لا مانع لما أعطيت» تقطع اليأس حين تغلق أبواب الخلق؛ فما أعطاه الله لا يملك أحد منعه، و«لا معطي لما منعت» تقطع التعلق بمن لا يملك أن يعطي ما منعه الله. ثم تسقط فتنة الحظ والغنى والقوة: لا ينفع صاحب الحظ حظه عند الله.

هذا الذكر لا يبرر التفريط ثم تعليق الفشل على المنع؛ فالذي شرع الصلاة أمر بالعمل أيضًا. وهو يطهر السعي من عبادة النتيجة، ويرد القلب بعد الإنجاز والإخفاق إلى ربه: ما أُعطي العبد ليس برهانًا على استقلاله، وما مُنع عنه ليس دليلًا على خروجه من عناية الله.

هدوء لا يطفئ الإرادة

إذا دخل التدبير في القلب هدأ القلق الذي يتغذى على وهم السيطرة الكاملة. كثير من الإنهاك لا يصنعه العمل نفسه، بل مطالبة النفس بأن تعرف كل الاحتمالات وتضمن كل المآلات. المؤمن مأمور بالبصيرة والمشاورة والاحتياط، لكنه ليس مكلفًا بالإحاطة بالمآلات ولا بملك النتائج. تنتهي مسؤوليته عند بذل الوسع فيما أمر به، ثم يكل ما غاب عنه إلى الله.

ولا يحول هذا الهدوء الإنسان إلى متفرج. يجري من تدبير الله ما شاء على يد عبد أحسن واجبه، وبكلمة حق، وبمداواة، وبإغاثة، وبقرار شجاع. من عرف تدبير ربه لم يحتقر دوره، لكنه لا يراه مستقلًا. يسأل: ما الذي أمرني الله به في هذه اللحظة؟ ثم يفعله، بدل أن يضيع عمره في محاولة امتلاك الغد.

وعندما تتغير الخطة، لا يلزم أن يفسر كل تغيير بأنه شر محض أو خير محض. يراجع نفسه، ويستغفر من تقصيره، ويستفيد من الخبرة، ثم يترك لله ما لم يعلمه. هذه ليست منطقة فراغ في العقل؛ إنها أدب مع العلم الإلهي. ربك يدبر الأمر، وأنت عبد تعمل في موضعك وتنتظر منه الفتح.

ومن أكثر المواضع التي يشتد فيها صراع التدبير والأسباب باب الرزق. فالإنسان يرى عقد العمل، والراتب، والعميل، والسوق، والمطر، ثم ينسى السؤال الذي يكرره القرآن: من يرزقكم؟

مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31]

سؤال يعرف الناس جوابه ولا يعيشونه

لا يسأل القرآن هنا قومًا ينكرون الله إنكارًا كاملًا. الجواب حاضر على ألسنتهم: الله. يعرفون أنه يرزق من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، ويدبر الأمر. ثم يكشف السؤال الأخير أن المعرفة لم تبلغ موضعها: «**أفلا تتقون**». قد يقر اللسان بالرازق، بينما ترتجف النفس أمام صاحب العمل كأنه يملك رزقها استقلالًا.

وجاء الرزق في الآية أوسع من المال. من السماء مطر ونور وأسباب لا يملك الإنسان إنزالها، ومن الأرض نبات وثمر ومعادن ومسالك كسب. ثم ذكرت نعمتا السمع والبصر، وحركة الحياة والموت، والتدبير العام. كأن السؤال يعيد تعريف الرزق قبل أن يجيب عنه: حياتك وآلات إدراكك والكون الذي تعمل فيه كلها من أبواب الإمداد.

لهذا لا يصح أن يحصر الإنسان رزقه في الرقم الذي يدخل حسابه. قد يزيد المال ويضيق الانتفاع به، وقد يقل مع عافية وأمن وقناعة. والرزق أوسع من المال؛ فمنه ما تقوم به حياة العبد وينتفع به، وله صور ظاهرة وباطنة. وليس كل توسعة إكرامًا مطلقًا، ولا كل تضييق إهانة؛ فالقرآن نفسه أبطل هذا الميزان في سورة الفجر.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفجر: 15-17]

إن أمسك رزقه

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: 21]

السؤال يضع الأسباب كلها أمام لحظة الإمساك: من يرزقكم إن أمسك رزقه؟ قد تبقى الأرض ولا تنبت، والسوق ولا تتيسر الصفقة، والجسد ولا يقدر على الانتفاع، والمال ولا يمنح صاحبه أمنًا. لا يقصد هذا أن يعيش العبد مذعورًا؛ بل أن يكف عن العتو، ويرى دوام الرزق نعمة متجددة لا حقًا ذاتيًا على الكون.

السبب طريق، والرازق هو الله

الراتب سبب، والبيع سبب، والزرع سبب، والمهارة سبب، والوراثة سبب. نسب الشرع الأموال إلى أصحابها وأمر بالعقود والعمل وحفظ الحقوق، فلا يجوز إلغاء هذه النسب. لكن السبب لا ينشئ أصل

الرزق، ولا يضمن دوامه، ولا يملك أن يجعل القليل مباركًا أو الكثير نافعًا. هو طريق يجري عبره ما قدّره الله.

حين ينسى القلب هذا الفرق يقع في أحد انحرافين. إما أن يعبد السبب، فيتنازل عن الحق لأن شخصًا أو مؤسسةً هددت رزقه، ويطلب المال من الحرام كأن خزائن الله أغلقت. وإما أن يترك السبب باسم التوكل، ثم يحمّل الإيمان نتيجة كسله. القرآن والسنة يجمعان القلب على الله والجوارح على السعي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]

جاءت صيغة الآية مؤكدة لانفراد الله بالرزق: ﴿**إن الله هو الرزاق**﴾، وجاء اسم الرزاق بصيغة المبالغة التي تدل على كثرة الرزق وتكرره واتساعه، ثم اتصل الاسم بالقوة المتينة. رزقه ليس جهدًا ينقص خزائنه، ولا عطاءً يخشى بعده الفقر. يرزق خلقًا لا يحصيهم العبد، في البر والبحر والسماء، ولا يضعف بذلك ملكه.

افتقار يسأل وسعي يغدو

جعلت السنة الافتقار إلى الرزق خطابًا يسمعه العبد من ربه. عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى:

«يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ» (صحيح مسلم، 2577).

الحديث لا ينكر أن الطعام يصل عبر يد مزارع وتاجر وأب وأم، لكنه يكشف الحقيقة التي لا ينبغي أن تحجبها الأيدي: أن الإطعام من الله، وأن الأيدي والأسباب لا تستقل به. وما عند العباد كله من عطائه، وهم لا يبلغون نفعه فيزيدونه ولا ضره فينقصونه. لذلك أمرهم أن يسألوه، لا لأن الدعاء يلغي العمل، بل لأن العمل نفسه فقير إلى التيسير والبركة.

قول العبد: ارزقني، ليس طلبًا للمال وحده. يسأل رزقًا حلالًا، وعافية ينتفع بها، وقلبًا لا يستعبده ما أعطي، وبركةً تجعل القليل قائمًا بالحاجة، وهدايةً تمنعه من شراء السعة بثمن دينه. وقد لا يقدّر الله له الصورة التي طلبها، ويفتح له بابًا آخر من الرزق لم يكن في حسابه.

ضرب النبي ﷺ للتوكل مثلًا متحركًا لا ساكنًا. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (سنن الترمذي، 2344، حديث صحيح).

خرجت الطير أول النهار جائعة، ولم تبق في أوكارها تنتظر أن يحمل إليها الحب. خرجت بلا علم بموضع كل حبة، ولا قدرة على ضمان ما ستعود به. في المثال اجتماع السعي والافتقار: حركة حقيقية، وقلب لا يجعل الحركة رازقًا. لذلك كان التوكل عبادة قلبية تصاحب السبب، لا اسمًا لتجميد الجوارح.

وحق التوكل لا يعني توقع النتيجة التي رسمها الإنسان. الطائر يطلب رزقه الذي قدّره الله له، والعبد يسعى فيما أباح الله، ثم يرضى بأن العطاء له مقدار ووقت وصورة. وقد يكون في صرف بعض ما طلبه لطف لا يعلمه؛ فقد يفسده مال، أو يستهلك دينه عمل، أو يقطعه توسع عن واجب. ولا يجزم بالحكمة الخاصة في واقعة بعينها، لكنه يثق بالرزاق ولا يسيء به الظن.

حين يدخل الخوف بيتك

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]

يبلغ خوف الرزق أشده حين يتعلق بمن يحب الإنسان ويعول. خاطب القرآن هذا الخوف قبل أن يتحول إلى جريمة، وقدم رزق الأولاد على رزق الآباء في موضع الخشية من الفقر المستقبل: ﴿**نحن نرزقهم وإياكم**﴾. لا يجعل الولد خصمًا في خزينة محدودة، ولا يجعل عدد الأفواه مبررًا لإهدار النفس التي حرم الله.

ولا تلغي الآية واجب النفقة وحسن التقدير والاقتصاد في المعيشة؛ وإنما تمنع أن يتحول الحساب إلى يقين مستقل عن خزائن الله. على الوالد أن يعمل ويرعى ويعلم أبناءه، وأن يرفض التبذير، لكنه لا يرى الولد عبئًا ماليًا يبيح ظلمه؛ فهو نفس حرم الله قتلها، وجعل على الوالد واجب السعي والرعاية.

وفي حياتنا صور أخف من القتل لكنها تنشأ من الخوف نفسه: تضييع حق، وقطيعة رحم، وتعليم الأبناء أن المال هو الأمان الأعلى، أو إلقاء الذل في قلوبهم باسم ضمان المستقبل. معرفة الرزاق لا تزيل مسؤولية النفقة؛ تخلصها من الهلع الذي يفسد البيت ويجعل الرزق موضوعه الوحيد.

حين يهددك السبب

يظهر صدق المعرفة بالرازق عند التعارض. ما دامت الطاعة لا تكلف مالًا ولا منصبًا، يسهل أن نقول: الرزق على الله. فإذا قيل للإنسان: اكذب لتحفظ عملك، أو اظلم غيرك لتضمن موقعك، أو خذ

الحرام لأن الفرصة لن تعود؛ انكشف موضع الرزاق في قلبه. ليس المطلوب تهورًا يضيع الحقوق، بل ألا يجعل الخوف من المخلوق حجة لمعصية الخالق.

ووعد الرزق ليس وعدًا بالغنى، ولا بأن يبلغ كل مخلوق كل ما يشتهي أو يأمن الفقر والمرض والموت. إنه خبر صادق بتولي الله رزق كل دابة في أجلها وعلى ما قدره لها؛ فما يصل إليها لا يخرج عن علمه وملكه، والحياة دار ابتلاء لا دار استيفاء كامل.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6]

يربط السياق بين الرزق والعلم. لا تضيع دابة في زحام الخلق؛ يعلم الله مستقرها ومستودعها، ورزقها معلوم له مكتوب في الكتاب المبين. وهذا لا يبيح للإنسان أن يهمل الحيوان أو الضعيف ثم يقول إن الله يرزقه؛ فقد يكون هو نفسه مأمورًا أن يكون سببًا في إيصال الرزق. الإيمان بتكفل الله يحمّل القادر أمانة، ولا يعفيه منها.

من عرف الرزاق اتسع دعاؤه وضاق ذله للخلق. يشكر من أحسن إليه، ويحفظ حق صاحب العمل، ويتعامل بأمانة؛ لكنه لا يبيع ضميره له. والناس أسباب يتبادل بعضهم مع بعض المنافع، وكلهم فقراء. قد يفتح الله رزقك على يد من لم تعرفه، وقد يغلق بابًا تعلق به قلبك، فتتعلم أن خزائنه لم تكن وراء ذلك الباب وحده.

ويتحول السعي نفسه إلى عبادة حين يصح القصد والطريق. والعامل الذي يطلب الحلال ويكفي أهله وينفع الناس يحقق التوكل في موضعه. والخوف الطبيعي من المستقبل لا يلام عليه العبد، لكن عليه ألا يتركه يقوده إلى الحرام أو يبتلع حاضره. يكفيه أن يسأل، ويعمل، ويستخير، ويعلم أن رب الغد هو رب اليوم.

وإذا وصل الرزق، لم تنته حركة المعرفة. الخطر التالي أن يلتفت الإنسان إلى الشيء ويغفل عمن أعطاه، وأن تحجب الألفة دلالة النعمة على المنعم. لذلك ينقل القرآن القلب من سؤال ﴿من يرزقكم؟﴾ إلى تقرير أقرب من كل شيء في اليد والجسد والبيت: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾.

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

الآية التي تمر على كل ما فيك

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 53-54]

«**ما بكم**» لا تقول: ما حولكم فقط. النعمة في الجسد والعقل والسمع والأمن، وفي القدرة على المحبة والفهم والحركة، وفي بيت يأويك وشخص يرحمك، وفي إيمان عرّفك بالمنعم. ثم جاء العموم: «**من نعمة**». لا يخرج شيء صح أن يسمى نعمة عن هذه النسبة: فمن الله.

وتكشف الآية مفارقة الإنسان: عند الضر يضيق الطريق إلى جهة واحدة، فيجأر إلى الله، فإذا كشف الضر عاد بعض الناس إلى الشرك والنسيان. الألم يزيل مؤقتًا وهم الاستقلال، ثم تعيده العافية إن لم تُقرأ على أنها كشف من الله. ليست المشكلة أن العبد دعا عند الشدة؛ هذا من فطرته وإيمانه. المشكلة أن معرفته بالمنعم لا تبقى بعد انقضاء الحاجة.

في سياق سورة النحل تتوالى النعم: خلق السماوات والأرض، والأنعام، والخيل والبغال والحمير، والماء والنبات، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، والبحر وما فيه، والجبال والأنهار والسبل. ثم يأتي التقرير الجامع. ليست القائمة استعراضًا لموجودات؛ إنها تدريب للقلب على رد المتفرق إلى المنعم الواحد.

ظاهرة وباطنة

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]

النعمة الظاهرة أسرع إلى العين: مال وصحة ومسكن وولد. أما الباطنة فتحتاج بصيرة: إيمان يهدي، وعقل يميز، وستر يحفظ العبد، وصرف لشر لا يعلمه، وسكينة تخفى أسبابها. ومن أعظمها أن يعرف المنعم؛ فقد يملك المرء أسباب الرفاه ثم يجهل لماذا يعيش وإلى من يرجع. ولا يجوز أن نعين لكل قدر حكمة مخصوصة بغير دليل، لكن عطايا الله أوسع مما تدركه الحواس.

أكثر النعم دوامًا أقلها حضورًا في الوعي. يتنفس الإنسان ولا يرى في الهواء خيرًا، وينام في أمن، ويحرك يده، ويفهم خطاب من يحب؛ فإذا اختل واحد منها ظهر بعد طول غفلة. وتوقظ الآيات هذه المعرفة قبل الفقد، من غير أن تجعل الشكر هلعًا دائمًا؛ فهو سكينة بالمنعم، واستعمال للعطية في رضاه.

نعمة لا يحيط بها العد

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 18]

وأفردت الآية «**نعمة الله**» والمراد جنس النعم التي تتشعب وجوهها وآثارها حتى يعجز العبد عن إحصائها. فلقمة واحدة وراءها أرض وماء وشمس وأيد وطرق وصحة في الجسد. ومن مناسبة ختم الآية بالمغفرة والرحمة أن العبد يعجز عن الإحصاء، فضلًا عن أداء الشكر كاملًا.

قد تكون النعمة حاضرة، ويحجبها النظر المستمر إلى ما في أيدي الآخرين. لا يرى الإنسان بيته لأنه رأى أوسع منه، ولا عافيته لأنه رأى من هو أكثر مالًا، ولا ما فتح له من علم لأن غيره أشهر. وقد تنفع المقارنة في التعلم، لكنها تفسد حين تجعل فضل الله على العبد صغيرًا في عينه دائمًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ» (صحيح مسلم، 2963).

لا يدعو الحديث إلى ترك الطموح أو تجاهل الفقر والظلم؛ بل يعالج ازدراء النعمة. ينظر العبد في الدنيا إلى من فقد ما اعتاده حتى يعود الميزان، وينظر في الدين والعمل الصالح إلى السابقين فتستيقظ همته. وهكذا لا تتحول القناعة إلى خمول، ولا يتحول الطموح إلى جحود.

من الحمد إلى عمل الشكر

قد يظن الإنسان أن شكر النعمة مقام لا يتحقق إلا في أعمال عظيمة، فجاءت السنة إلى أكثر المشاهد تكرارًا. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» (صحيح مسلم، 2734).

في الحديث صلة بديعة بين النعمة والعبادة والرضا. لقمة لا يلتفت إليها الناس تكون سببًا لرضا الله إذا عبرت بالقلب واللسان إلى الحمد. وليس الحمد صوتًا معتادًا بعد الطعام؛ بل اعتراف بأن الله هو المطعم،

وأن القدرة على الانتفاع من فضله، وأن نعمته لا تستعمل في معصيته. وبهذا تتسع أبواب الحمد في تفاصيل اليوم: شربة ماء، ولباس، وعودة إلى البيت، وفهم مسألة.

الشكر في السنة ليس كلمة تقال عند تمام الراحة فقط. كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتورم قدماه، فقيل له وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال:

«أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» (صحيح البخاري، 1130؛ صحيح مسلم، 2819).

وصل النبي ﷺ بين النعمة وزيادة العبودية. فلم تكن مغفرة الله له باعثًا على الفتور، بل قابلها بشكر حمله على القيام. وهذا يصحح تصورًا يجعل العبادة ضريبة يؤديها الخائف فقط؛ فالعارف بالله يعبده خوفًا ورجاء ومحبة وشكرًا. ويتحقق الشكر باعتراف القلب، وثناء اللسان، واستعمال النعمة في طاعة الله، مع استغفار عند التقصير وتجدد العودة إلى المنعم.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]

قال: «**اعملوا**»؛ لأن الشكر لا يبقى شعورًا داخليًا. والعمل شكر حين يصدر عن معرفة المنعم، ويلتزم حدوده، ويقصد مرضاته. ومن قال الحمد لله ثم جعل علمه بابًا للكبر، أو ماله طريقًا إلى الظلم، أو صحته وقودًا للمعصية، لم يؤد حق الشكر وإن نطق به.

النعمة أمانة لا تزكية

ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ [التكاثر: 8]

ينقل السؤال النعمة من الشعور بالامتلاك إلى معنى الأمانة: كيف تلقى العبد نعمة ربه، وفيم استعملها؟ ولا يجعل النعيم مذمومًا؛ فالله هو المنعم، لكنه يمنع أن يعبر العمر في الاستهلاك من غير عبودية ومسؤولية. وللنعمة حق يناسبها: في المال أداء الواجب والإحسان، وفي العلم تعليم ونصح، وفي الجاه نصرة للحق، وفي الصحة والوقت قيام بالواجب.

وليست كثرة النعمة دليلًا قاطعًا على رضا الله، ولا فقدها دليل إهانة؛ فقد يبتلي الله بالسعة كما يبتلي بالضيق. ولا يملك العبد أن يعين معنى ما نزل به بغير دليل، لكنه يملك أن يسأل: ماذا صنعت النعمة فيك؟ هل قربتك من الله وأقامتك في الحق، أم زادتك غفلة وبطرًا؟ ولا يطلب الشكر من الفقير أن ينكر ألمه، ولا من المريض أن يسمي المرض عافية؛ وإنما يمنع الألم من أن يحجب كل فضل.

ولا يعني الشكر الشعور بالذنب كلما استمتع الإنسان بمباح، فقد أباح الله الطيبات وأمر بالحمد. يأكل العبد ويشرب ويلبس ويسكن من غير إسراف ولا مخيلة ولا نسيان لحق المحتاج. الشكر لا يحرم النعمة، بل يحرر القلب من أن تملكه، ويجعل التمتع بها طريقًا إلى المحبة بدل الغفلة.

حين تعرف لماذا تقول: الحمد لله

قال العبد في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وحين يرى الخلق والأمر والتدبير والرزق والنعمة، يعود إلى الكلمة نفسها وقد اتسع معناها. يرفع لقمةً إلى فمه فيرى وراءها أرضًا وماءً وكسبًا وجسدًا ينتفع، فيحمد رب العالمين الذي خلق ودبر ورزق وأنعم. ويعمل ويخطط ويشكر أسباب الخير، من غير أن ينسى الخالق في الخلق، ولا الرزاق في السوق، ولا واهب النعمة في الشيء الذي وصل إلى يده.

لكن الحمد إذا صدق لا يقف عند اللسان. فالرب الذي له الخلق والأمر، والذي يدبر ويرزق ويُرجع إليه كل نعمة، لا يطلب من القلب اعترافًا بربوبيته ثم يترك وجهته موزعة. ويبقى السؤال مفتوحًا: فلمن يكون الدعاء والذل والرجاء والعبادة؟

هُوَ اللَّهُ

كيف يبني القرآن علم العبد بربه؟

ومعرفة الربوبية تفتح باب المحبة من جهة الإنعام، لكنها لا تحبسها فيه. يحب العبد ربه لأنه الخالق المدبر الرزاق المنعم، ثم يرتفع حبُّه عن أن يكون متعلقًا بالعطية وحدها، فيحب المعطي في السعة والضيق، ويحمده عند الوصول والمنع، ويأنس بتدبيره وإن لم يفهم كل طريقه. عندئذ لا تكون النعمة حجابًا عن المنعم، ولا يكون فقدها قاطعًا للصلة به.

لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

يعترف الإنسان بأن الله خلقه ورزقه ودبّر أمره، ثم قد يفاجئه الخوف فتتوزع جهاته، أو يجيء محبوب فيزاحم أمر الله، أو يشتد الاحتياج فيتعلق القلب بباب من أبواب الخلق كأن النجاة لا تأتي إلا منه. هنا تكشف كلمة التوحيد مفارقة لا يعالجها مجرد الإقرار بالربوبية: كيف يعرف القلب ربًّا واحدًا، ثم يمنح حقه لجهات شتى؟

لهذا جاءت ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بحركة تطهر القلب ثم تعمره: ينفي صدرها استحقاق العبادة عمن سوى الله، ويثبت آخرها الألوهية له وحده. فلا يكفي أن يسقط الند من الحجة؛ لا بد أن يمتلئ موضعه بمحبة الله وتعظيمه ودعائه والافتقار إليه، حتى تصير الكلمة راحة قلب سلِم لواحد، لا شعار خصومة فحسب.

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

آية تحمل حجتها وحقها

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾
[الأنعام: 102]

لا تأتي الجملة في فراغ، ولا تقفز من اسم الله إلى الأمر بغير حجة. اسم الإشارة يعيد القلب إلى ما امتلأ به السياق قبلها: حبٌّ ونوى ينفلقان، وحي يخرج من ميت، وإصباح يشق الظلمة، وليل يسكن فيه الخلق، وشمس وقمر يجريان بحساب، ونجوم يهتدى بها، ونفس واحدة نشأ منها البشر، وماء ينزل فتتنوع به الثمار. ثم ذُكر بطلان ما نسبه المشركون إلى الله من شركاء وولد، ونُزّه الخالق عن أوهامهم. بعد هذا كله جاء التعريف الجامع، ثم جاء الحق الذي يترتب عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾
[الأنعام: 95-96]

الحركة القرآنية لا تقول للإنسان: اعمل أولًا على قبول مبدأ مجرد، ثم ألحق به عبادةً منفصلة. إنها تفتح عينه على فعل الله الجاري في أصل الحياة وإيقاع الزمن، ثم تسأله عن وجهته. من كان وحده فالق الحب

والنوى والإصباح، ومن كان تقدير الشمس والقمر صادرًا عن عزته وعلمه، لا يكون ذكره خبرًا محايدًا في حياة العبد. المعرفة هنا تنشئ حقًا، والنعمة تنشئ شكرًا، والخلق ينشئ عبودية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 99-101]

في المقطع انتقال من النظر في الثمرة عند ظهورها ونضجها إلى تنزيه الله عن الشريك والولد. الذي أنبت الأشياء على اختلافها لا يشبهها، والذي خلق كل شيء لا يكون واحدًا من جنس خلقه، ولا يحتاج إلى صاحبة أو ولد. لذلك لا يصح أن تُقرأ دلائل الربوبية ثم تُعاد صياغة الإله على صورة المخلوق. الاستدلال نفسه يهدي إلى الإثبات والتنزيه معًا: فعل ظاهر في الخلق، وكمال يليق بالخالق، وفارق لا يذوب بينه وبين ما أوجد.

من الخبر إلى الاستحقاق

تجمع الآية أربعة أصول متتابعة: تعريف الرب، ونفي المعبود بحق سواه، وعموم الخلق، ثم الأمر بالعبادة. ليست هذه عناصر متجاورة يمكن فصل بعضها عن بعض. والله لا يستحق العبادة لمجرد منفعة وصلت إلى العبد، بل يُعبد لأنه الله، الواحد الأحد، ذو الجلال والإكرام، الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله. ثم تكشف أفعاله في الخلق والرزق والرحمة للقلب أبوابًا من المحبة والشكر والافتقار. وعموم الخلق يخرج كل ما سواه من حق العبادة: فالملائكة والأنبياء والأولياء والملوك والأسباب جميعًا عبيد مخلوقون، ولا يملك مخلوق أن يأخذ من حق الخالق شيئًا.

ومعنى كلمة التوحيد في هذا السياق ليس نفي وجود معبودات عبدها الناس؛ فقد عبدوا آلهة كثيرة باطلة. إنما تنفي أن يكون شيء منها مستحقًا للعبادة. فالمعبودات الباطلة موجودة في اعتقاد عابديها أو في أعيانها، لكن الألوهية الحق لله وحده. ولهذا لا ينفع التلفظ بالنفي والإثبات مع صرف الدعاء أو الذبح أو النذر أو غيرها من العبادات لغيره؛ فالكلمة خبر وعهد، ومعناها يطلب من القلب والجوارح أن يصدقاها.

ثم ختمت الآية بالوكالة العامة. فالذي أمر بالعبادة هو الوكيل على كل شيء، الحافظ المدبر له. وبذلك لا تقوم الصلة بالله على مقايضة: طاعة في مقابل عطية؛ بل على معرفة من هو الله، ثم على افتقار العبد إلى من بيده حفظه وتدبيره. يعبده حبًّا وتعظيمًا وذلًّا، ويتوكل عليه لأن الأمر كله إليه.

حين يُبيّن النبي ﷺ حق الله

جاء البيان النبوي فسمّى هذه النتيجة حقًا لله على عباده. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» (صحيح البخاري، 2856، واللفظ له؛ وأخرجه مسلم، 30، بنحوه).

بدأ الحديث بالعبادة، ثم حماها من الشرك؛ لأن صورة العمل لا تكفي إذا دخلها صرف شيء من حق الله لغيره. ولفظ العموم في النهي شديد: لا يُجعل معه شيء، أيًّا كان قدر ذلك الشيء في أعين الناس. وكل مخلوق مهما شرف يبقى عبدًا لله، لا يملك أن يرفع نفسه إلى مرتبة المعبود، ولا يجوز لمحبيه أن يرفعوه إليها.

أما الحق المذكور للعباد فهو حق أحقه الله على نفسه بوعده وفضله، لا حكم يفرضه عليه أحد؛ فهو الملك الحكيم الذي لا يسأله خلقه عن فعله سؤال محاكمة. وتجمع نصوص الوعد والوعيد في أبوابها، فلا يتخذ الحديث ذريعة لترك الفرائض أو اقتحام المحرمات؛ ولهذا خشي النبي ﷺ أن يتكل الناس إذا بُشروا به بلا فقه. المقصود أن التوحيد أصل النجاة وأعظم الحقوق، لا أنه كلمة تعطل بقية الدين.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58]

تكشف هذه الآيات أن الأمر بالعبادة لا يصدر عن حاجة في الخالق. لم يخلق الجن والإنس ليزيدوا ملكه أو يرزقوه أو يطعموه؛ فهو الرزاق ذو القوة المتين. والله غني عن عبادتهم، وإنما منفعة العبادة وثمرتها عائدة إليهم؛ فلم يخلقهم لحاجة منه، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونجاتهم.

وجاء اسم الرزاق بعد ذكر الغاية ليحرر العبادة من المقايضة. لا يساوم المؤمن ربَّه بطاعة على رزق، ولا يجعل محبته تابعة لما يصل إليه من العطاء؛ بل يعبده لأنه الإله الحق، ذو الجلال والكمال، ثم تزيده آثار رزقه ورحمةُ إنعامه حبًّا وشكرًا. فالله غني عن العالمين، وإنما يأمر عباده بحقه الذي فيه صلاحهم ونجاتهم.

لا معرفة محايدة

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: 62-66]

وفي آيات الزمر يشتد الأمر. يعم الخلق والملك، ثم يواجه النبي ﷺ بأمر المشركين له أن يعبد غير الله، ثم يذكر أن الشرك يحبط العمل، وينتهي بأمر العبادة والشكر. وجاء الخطاب للنبي ﷺ على سبيل الفرض والتقدير، لبيان فظاعة الشرك وإحباطه العمل، مع عصمة الأنبياء منه.

وهنا يُسأل العبد. ليس فقط: هل أؤمن بأن الله خلقني؟ بل: ماذا صنعت هذه المعرفة في قصدي؟ لمن يكون سجودي ودعائي وذلي ورجائي الذي لا تحده الأسباب؟ وعند من تنتهي الخصومة إذا تعارض أمر الله مع هوى أو ضغط أو مصلحة؟ هنا ينكشف الفرق بين معرفة يقر بها اللسان، وعبادة تحكم القلب والقرار.

إذا ثبت أن العبادة حق ناشئ من حقيقة من هو الله، بقي أن ينظر القلب في الحجة وهي تتكرر أمامه لا في آية جامعة وحدها، بل في مشاهد لا يكاد يخرج منها الإنسان لحظة: ماء وحديقة وأرض مستقرة ودعاء مضطر وطريق في ظلمة ورجوع بعد موت. هناك يضع القرآن الشريك أمام السؤال الذي لا جواب له.

أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ

سؤال لا يترك للشريك موضعًا

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: 59]

يفتتح المقطع بالحمد والسلام على المصطفين، ثم يضع طرفي المقارنة في صيغة لا تحتمل التباسًا: الله، وما يشركون. ليست المقارنة بين قوتين متقاربتين، وإنما هي فضح للتناقض في أصل العبادة. وبعد السؤال الإجمالي لا يكتفي القرآن بالنتيجة، بل يعرض خمس قضايا من أفعال الرب، ويعود في نهاية كل قضية إلى

الاستفهام نفسه. التكرار هنا ليس زيادة لفظ، إنه طرق متتابع على موضع الوهم حتى لا يهرب القلب من الحجة.

والسؤال لا يطلب من المشرك أن يخمن اسم الفاعل؛ فهو يقر في الجملة بأن الله الخالق الرازق. المطلوب أن يرى ما يلزم عن إقراره. فإذا لم يكن الشريك قد خلق، ولا دبّر، ولا أجاب، ولا هدى، ولا بدأ الخلق ولا أعاده، فمن أين جاءه حق العبادة؟ كل مرة يتكرر فيها الاستفهام ينتقل البرهان من المعرفة إلى الاستحقاق.

من الحدائق إلى قرار الأرض

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 60-61]

يبدأ بالحياة التي تبتهج لها العين. ينزل الماء، فتنبثق منه حدائق حسنة المنظر، ثم يقف النص عند حد القدرة البشرية: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها. يحرث الإنسان ويبذر ويسقي، وهذه أسباب حقيقية مأمور بها، لكنه لا يخلق الحياة في البذرة ولا يأمر الجذور أن تشق طريقها. لا يحتقر القرآن عمله، وإنما يمنعه أن ينسب إلى السبب ما ليس له.

ثم ينتقل من البهجة إلى الاستقرار الذي لا يلتفت إليه الناس لكثرة ملازمته: أرض تصلح للقرار، وأنهار تجري في خلالها، وجبال تثبتها بما شاء الله، وحاجز بين البحرين. ما يراه الإنسان خلفية صامتة لحياته يعيده الوحي إلى فعل الرب. ولو اضطرب أصل القرار لم تنفعه مشاريعه الصغيرة. ومن عرف من أقام له موضع الحياة، استحيا أن يجعل العبادة لغيره.

ويجيء الجواب بعد المشهدين بكشفين مختلفين: مرة يصفهم بأنهم يعدلون، أي يجعلون لله عدلًا ويسوون به غيره أو يعدلون عن الحق؛ ومرة ينفي عن أكثرهم العلم في هذا المقام. فالشرك فساد في الميزان ونقص في المعرفة معًا. قد يرى الإنسان الآية ولا يعطيها حكمها، وقد يقر بالفعل ثم يسوي في العبادة؛ ولذلك لا تكفي كثرة المعلومات إذا لم يصلح بها ميزان التعظيم.

حين تنقطع الجهات

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62]

في الآية الثالثة لا يقف الإنسان أمام حديقة أو نهر، بل داخل ضيق يمسّه. المضطر هو الذي أحاطت به الحاجة وانقطعت عنه وجوه الحيلة أو ضاقت. وفي تلك اللحظة تسقط زينة الادعاء، ويعرف القلب بفطرته جهة الالتجاء. الله هو الذي يجيب دعاءه ويكشف السوء، لا لأن العبد يملك على ربه صورة بعينها، ولا لأن كل مطلوب يقع في الوقت والطريقة التي رسمها، ولكن لأن الإجابة وكشف الضر لا يملكهما أحد استقلالًا سواه.

قد يجعل الله الفرج في إعطاء المطلوب، أو في صرف ضر أعظم، أو في تأخير يعلم حكمته، ولا يجوز للعبد أن يعيّن حكمة خاصة بغير دليل. لكن الآية تحسم أصلًا لا يتغير: الطبيب يعالج، والصديق يعين، والقاضي يرفع مظلمة، وكل ذلك من الأسباب المأذونة؛ والله وحده يخلق أثر السبب، ويكشف السوء، ويفتح ما أغلق.

ثم تذكّر الآية بتعاقب الناس في الأرض. يحمل كل جيل أمانة زمنه، ثم يذهب ويأتي غيره. من ظن أن موضعه دائم أو أن القوة استقرت له، نسي من جعله خليفة بعد من سبق. الدعاء عند الاضطرار، وكشف السوء، وتعاقب الأجيال، كلها تكسر غرور الاستقلال؛ ومع ذلك لا يتذكر إلا قليل.

هداية في الظلمات وبداية بعد النهاية

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: 63-64]

الظلمات في البر والبحر موضع افتقار محسوس. النجوم والعلامات والآلات أسباب هداية، لكن الذي خلق العلامة ومنح العين والعقل قدرة الانتفاع بها هو الله. ثم يرسل الرياح بشارة بين يدي رحمته، فيتحول الهواء الذي لا يملكه البشر إلى رسول يُبشّر بقرب المطر. لا تستدعي الآية الخوف وحده؛ تجمع الضياع بالبشارة، لتدل على رب يهدي ويرحم.

ويبلغ الحِجَاج غايته ببدء الخلق وإعادته والرزق. البداية التي عجز الشريك عنها، والعودة التي ينكرها المشرك، والرزق الذي يعيشه كل يوم، تجتمع في سؤال واحد. ثم لا يكتفي النص بنفي الدعوى، بل يطالب ببرهان. في باب العبادة لا يكفي الموروث، ولا شدة التعلق، ولا كثرة الأتباع. من ادعى لمخلوق حقًا من حقوق الألوهية فعليه الحجة، ولن يجدها في الوحي ولا في العقل السليم ولا في واقع الفعل.

وهنا تظهر قوة الحجة: لم يقل خمس مرات إن الأصنام باطلة ثم يمضي، بل جعل أفعال الله هي التي تنطق ببطلانها. كل فعل متفرد يسقط مزاحمًا، وكل نعمة تستدعي إفرادًا، وكل افتقار يرد القلب إلى واحد. فإذا بقي في القلب ند بعد هذا العرض، فالمشكلة ليست خفاء الدليل، بل أن هوى أو عادة أو خوفًا منع المعرفة من أن تأخذ حكمها.

سَلَمًا لواحد

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29]

لا يكتفي القرآن بإسقاط الشريك في مقام البرهان، بل يصور أثر الشرك والإفراد في حياة العبد. رجل تتنازعه أيدٍ متشاكسات، لكل واحد منها أمر ومطلب، ورجل خالص لرجل واحد يعرف مراده ووجهته؛ هل يستويان حالًا؟ كذلك القلب إذا توزع رجاؤه وخوفه وذله بين جهات متنازعة عاش في خصومة لا تنتهي، ولو كثرت الأسماء التي يسمي بها هذا التوزع.

وحلاوة التوحيد أن يسلم القلب لرب واحد: لا يحتاج أن يشتري رضا كل أحد بمعصية، ولا أن يطرق كل باب بذل العبادة، ولا أن يجعل مصيره معلقًا بمخلوق. يحب الناس ويأخذ بالأسباب ويؤدي الحقوق، لكن موضع العبادة الأعلى لا يتنازعه أحد. لذلك ختم المثل بالحمد لله؛ فالإفراد نعمة تحرر القلب من الشركاء المتشاكسين وتجمعه على ربه.

السؤال الذي يعود إلى حياتك

لا تقف عند أوثان قوم مضوا، ثم تترك صور المزاحمة في حياتك بلا فحص. حين يشتد الخوف، إلى أي جهة يهرب قلبك أولًا؟ وحين تطلب النجاة، هل ترى السبب طريقًا محدودًا، أم تمنحه في قلبك ما لا يملكه؟ وحين يتعارض رضا الناس مع أمر الله، لمن تكون الكلمة الأخيرة؟

والقرآن لا يسمح بأن تتحول الحجة إلى قسوة على المضطر. الآية نفسها تقول إن الله يجيبه؛ فهي باب رجاء قبل أن تكون برهان خصومة. من ضاقت به السبل لا يحتاج أن يثبت كماله حتى يدعو، بل يدعو

ربه وهو فقير. ومن حلاوة الإفراد أن يقصده بقلب لا يتوزع، ويعلم أن أبواب الخلق كلها إن أغلقت لم يغلق بابه، وأن فقره لا يطرده عن ربه بل يرده إليه.

لكن سقوط البرهان عن الشريك لا يعني أن الند لا يتكون. فقد يقر الإنسان بكل ما سبق، ثم يمنح غير الله في الدعاء أو المحبة أو التعظيم ما لا يليق إلا بالله. ولهذا يعقب القرآن السؤال: أإله مع الله؟ بالنهي الذي يضع اليد على فعل الإنسان نفسه: فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون.

فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا

أعظم الذنب في جملة نبوية

سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ عن أعظم الذنب عند الله، فجاء الجواب قصيرًا يحمل الحجة كلها:

«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» (صحيح البخاري، 4477، واللفظ له؛ وأخرجه مسلم، 86، بنحوه).

موضع العظمة في الذنب ظاهر في آخر الجملة: وهو خلقك. الذي أوجدك ورباك ورزقك، تجعل له مثيلًا في شيء من العبادة! لا يعني الند أن يصرح العابد بأن مخلوقًا مساويًا لله في كل الصفات؛ فقد كان المشركون يقرون بأن الله أعظم وخالق. يكفي في حقيقة الشرك الأكبر أن يسوي غير الله بالله في حق من حقوق العبادة، فيدعو المخلوق دعاء عبادة، أو يستغيث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يذبح وينذر له تقربًا، أو يصرف له عبادة لا تكون إلا للرب.

ولهذا لا يتعامل الحديث مع الشرك بوصفه خطأً نظريًا باردًا. إنه قلب لوجهة العبودية مع قيام حجة الخلق والنعمة. كل ما في العبد يشهد للخالق، ثم قد يستعمل القلب واللسان والجوارح في جعل الند. ومن هنا كان الشرك أعظم الذنوب.

النهي يأتي بعد تعداد النعم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21-22]

هذا أول أمر للناس في ترتيب المصحف، وقد جاء عامًّا: اعبدوا ربكم. ثم لم يترك الأمر بلا تعريف؛ وصف الرب بأنه خلق المخاطبين ومن قبلهم، وجعل الأرض قرارًا والسماء بناء، وأنزل الماء وأخرج

الثمرات رزقًا. وبعد الخلق والتمكين والرزق جاء النهي عن الأنداد. وليس الامتنان مقايضة على العطاء، بل كشف لمن هو ربك: الخالق المنعم هو وحده المستحق لغاية المحبة مع غاية الذل والتعظيم، وهذه هي عبودية القلب التي تتبعها عبادة الجوارح.

وقيد العلم شديد الدلالة. كانوا يعلمون أن الله هو الخالق والرازق، أو قامت عليهم من الآيات معرفة لا يصح معها جعل الند. وهكذا قد يجتمع أصل العلم مع فساد العبادة. ليست المشكلة دائمًا أن الإنسان لا يعرف من هو الله؛ قد يعرف أخبارًا صحيحة عنه، ثم لا يعطيها سلطانها على الحب والخوف والدعاء والطاعة. العلم الذي لا يحكم الوجهة حجة على صاحبه قبل أن يكون زينة له.

والند في أصل اللغة المثل والنظير. لكن المساواة هنا تعرف من الفعل لا من الدعوى وحدها. قد يقول المرء إن الله أعظم، ثم يلجأ إلى ميت أو غائب في أمر لا يقدر عليه إلا الله، ويجعله واسطة يتقرب إليها بالعبادة. وقد يزعم أنه لا يعبدها وإنما يريد القرب، وهي الحجة نفسها التي نقل القرآن عن المشركين وردها.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3]

لم ينفعهم اعترافهم بأن الله هو الغاية البعيدة ما داموا عبدوا الوسائط لتقربهم. فالإخلاص لا يقبل طريقًا يمر بعبادة غير الله. الأنبياء والصالحون يُحبُّون ويُتَّبَعون ويُوَقَّرون بما شرع الله، ولا يُدعون من دونه، ولا يُنذر لهم، ولا يملكون من خصائص الرب شيئًا. وصدق محبتهم يكون باتباع توحيدهم، لا برفعهم فوق العبودية التي شرفهم الله بها.

الند في الدعاء والمحبة

خص النبي ﷺ الدعاء في حديث آخر لأنه من أظهر مواضع التعلق والافتقار. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» (صحيح البخاري، 4497).

الدعاء ليس ألفاظ طلب فحسب؛ فيه ذل ورجاء وإظهار فقر. فإذا كان المطلوب مما لا يقدر عليه إلا الله، أو كان الدعاء دعاء عبادة وتقرب، فصرفه لغيره جعل للمدعو نصيبًا من حق الله. أما سؤال إنسان حي حاضر قادر أن يعين في أمر معتاد، فليس من هذا الباب؛ فالشرع أذن في التعاون والأسباب. الفارق أن المخلوق يُسأل بصفته سببًا محدودًا، لا مالكًا للغيب ولا مستقلًا بالتصرف.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165]

وتكشف الآية باب المحبة. ليست كل محبة لمخلوق ندًّا؛ فقد فطر الله الإنسان على محبة أهله وولده وإخوانه، وأوجب محبة رسوله ﷺ والمؤمنين، وأباح محبة الطيب من الأشياء. الند ينشأ حين يُعطى المخلوق من محبة العبادة والتعظيم والخضوع ما يجعله مساويًا لله أو مزاحمًا لحقه، أو حين تُقدّم طاعته على أمر الله على وجه التعبد له أو اعتقاد حقه في ذلك.

ولهذا وصفت الآية المؤمنين بأنهم أشد حبًّا لله. محبتهم له محبة عبادة، تقوم على معرفة كماله وإحسانه، وهي أصل جامع يضع سائر المحاب في مراتبها ويمنح القلب وحدته وراحته. يحبون رسوله لأنه رسول الله، ويحبون المؤمنين لله، ويحبون النعم مع شكر المنعم، ويتركون محبوبًا إذا حرمه الله. ليست الغاية إطفاء العاطفة، بل أن يكون الحب الأعلى لله؛ فإذا استقام أعلاها استقامت سائر المحاب، ولم تنازع القلب على مقام العبودية.

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 97-98]

هذه شهادة المشركين بعد انكشاف الباطل. لم يقولوا إن أصنامهم خلقت السماوات والأرض أو ساوت الله في كل صفة؛ إنما اعترفوا بأن ضلالهم كان في التسوية برب العالمين. والتسوية تعرف من موضعها: جعلوا لها من العبادة والتعظيم ما ليس لها. لذلك قد يقع الند مع بقاء الاعتراف بتفاوت الخالق والمخلوق، لأن مناط الشرك ليس دعوى المساواة المطلقة، بل إعطاء المخلوق حقًا خالصًا لله.

يقظة بلا تسرع

الدقة واجبة في هذا الباب. فالشرك الأكبر أن يصرف العبد شيئًا من العبادة لغير الله، أو يجعل لله شريكًا في شيء من خصائص ربوبيته أو ألوهيته. ومن الشرك الأصغر الرياء الذي يطرأ على العمل، وما سماه الشرع شركًا أصغر؛ وهو ذنب عظيم لا يخرج من الإسلام، وتجب التوبة منه وحراسة العمل من أسبابه.

وليس فحص الند دعوة إلى التسرع في أحكام الناس؛ فمعرفة حكم قول أو فعل غير تنزيل الحكم على شخص بعينه، وذلك باب علم وعدل وتثبت تُراعى فيه الشروط والموانع. المقصود هنا أن يحرس العبد توحيده ويعرف حدود العبادة، لا أن يفتش عن مصائر الخلق، كما لا يجوز أن يتحول التثبت في الأعيان إلى محو حقيقة الشرك أو تمييعها.

وقد تبدأ المزاحمة دون أن تبلغ الشرك الأكبر: رياء يطلب نظر الناس، أو خوف يجر إلى معصية، أو تعلق بسبب يملأ القلب، أو حب يضعف معه تقديم أمر الله. هذه أمراض تحتاج توبة وتزكية، ولا يلزم من تسميتها خطرًا على التوحيد الحكم بأنها ناقضة لأصله.

مراجعة الند في القلب

أصعب الأنداد على الفحص ما لبس ثوب الضرورة. قد يقال: لا أريد إلا حفظ العمل، أو رضا الجماعة، أو بقاء الصورة، ثم يصبح هذا المحبوب صاحب الكلمة الأخيرة عند التعارض. لا يكفي هنا إطلاق أحكام عامة؛ المطلوب أن يسأل العبد نفسه بصدق: هل بقي السبب في حد السبب، أم صار يملك في قلبي من الخوف والرجاء ما يحملني على نقض أمر الله؟

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]

تكشف الآية مسارًا أعمق من اتباع شهوة عابرة: أن يصير الهوى هو المرجع الذي تُقبل الأحكام أو ترد بحسب موافقته. وليس كل ذنب شركًا أكبر؛ فقد يعصي الموحد وهو يعلم أنه عاصٍ ويرجع إلى حكم الله. لكن الخطر يبدأ حين يكف القلب عن محاكمة هواه بالوحي، ويمنحه حق الكلمة الأخيرة كلما تعارضا. عندها لا يعود الهوى رغبةً تُجاهد، بل سلطانًا يطلب الطاعة.

ومن رحمة الله أن النهي جاء للعبد قبل أن يلقى نتيجة الند. ما دام حيًا يستطيع أن يراجع، وأن يرد الدعاء إلى ربه، وأن يطهر المحبة من التسوية، وأن يكفر بما يعبد من دون الله، وأن يجدد كلمة التوحيد علمًا وقصدًا وعملًا. ليست هذه المراجعة موسمًا للوسواس؛ فمن ثبت إسلامه بيقين فلا يزول إسلامه بالشك، والأحكام تبنى على اليقين. لكنها يقظة تحفظ أصل الدين من الغفلة والتساهل.

بعد أن نفى القرآن الإله مع الله، وكشف مواضع الند الظاهرة والباطنة، لا يترك القلب فارغًا. نفي الكلمة يطهر موضع العبادة، وإثباتها يعمره بالله. لذلك يتحول الحِجَاج إلى خطاب مباشر يقوله المؤمن في كل صلاة، وتلتقي غاية القصد وافتقار الطريق في جملة واحدة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

إياك: حين يتقدم المقصود

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]

تقدّم المفعول وتكرر، فصار الكلام أصرح في الاختصاص: لك وحدك عبادتنا، وإياك وحدك نستعين استعانة العبادة والافتقار المطلق. أما ما نستعين به من خلقك فيما يقدر عليه فسبب لا يستقل بأثره، ولا يخرج عن خلقك وتدبيرك. لم يقل العبد: نعبدك ونستعينك، مع صحة أصل المعنى، بل قدم ضمير المخاطب حتى تمتلئ الجملة به قصدًا ومحبةً وافتقارًا.

وهذا هو الجواب الذي كانت المقاطع السابقة تمهد له. من عرف رب العالمين خالقًا ومدبرًا ورازقًا، ثم أبطل القرآن أمامه كل شريك، لم يبق له أن يقف عند وصف المعرفة. يخاطب ربه الآن مباشرة، ويقدم بين يدي طلبه عهدًا جامعًا: العبادة لك، والعون منك.

نعبد: غاية تجمع الحياة

العبادة في أصلها غاية المحبة مع غاية الذل والخضوع، وهي في القرآن أوسع من الشعائر مع دخول الشعائر في قلبها. تشمل محبة الله وتعظيمه وخوفه ورجاءه والتوكل عليه، وتشمل الصلاة والدعاء والذكر، وتمتد إلى امتثال أمره في المال والعلاقات والعمل. والمقصود هنا أن تجتمع الحياة كلها تحت إفراد الله بهذه العبودية، لا أن تستقصى أبواب العبادة تفصيلًا.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]

لم يترك القرآن دعوى المحبة شعورًا لا يمتحن؛ جعل اتباع الرسول ﷺ برهانها وطريقًا إلى محبة الله ومغفرته. فمحبة الله لا تُبنى على ذوق يخالف أمره، ولا على حرارة تستغني عن السنة. وكلما ازداد العبد معرفةً بربه أحب ما جاء منه، وكان صدق الحب أن يقدّم مراده سبحانه على هوى النفس، مع بقاء الضعف والتوبة عند الزلل.

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [المائدة: 54]

قدّم الله محبته لهم على محبتهم له؛ فابتداء الفضل منه، والهداية إليه منه، والثبات على محبته من عطائه. وليست الغاية أن يدّعي العبد أنه يحب الله، بل أن يعرف من كمال ربه ورحمته وإحسانه ما يملأ القلب محبةً، ثم يصدق ذلك باتباع وعبادة وافتقار.

ولفظ الجمع يعلّم الفرد ألا يرى نفسه موحدًا معزولًا. يقولها وحده وفي الجماعة، ويدخل بعبادته في صف عباد الله. لا يذيب ذلك مسؤوليته الشخصية؛ كل نفس تحاسب على عملها. لكنه يكسر عبادة الذات، ويذكره أن الطريق سبقته فيه أمة من الأنبياء والصديقين والصالحين، وأن الإفراد يجمعهم على رب واحد ولو اختلفت أزمانهم وألسنتهم.

ويمنع العهد أن تُقسم الحياة بين رب للمسجد ومرجع آخر عند التعارض. ما دام العبد يقول إن عبادته لله، فالأصل أن يكون أمر الله حاكمًا على صلاته وكسبه وخصومته وخلوته. قد يعصي الموحد ويضعف، ولا تخرجه كل معصية من التوحيد، لكنه لا يجعل الهوى مرجعًا يقدم أمره عند معارضة حكم الله.

العبادة والاستعانة: لا عجب ولا عجز

بعد إعلان الغاية يأتي طلب المعونة. وهذا الترتيب يحفظ العبد من آفتين: أن يظن العبادة إنجازًا ذاتيًا يستغني به، أو أن يجعل افتقاره حجة لترك العمل. هو مأمور أن يعبد، وله إرادة وقدرة حقيقية خلقهما الله، لكنه لا يهتدي إلى الطاعة ولا يثبت عليها ولا يتمها إلا بتوفيق ربه. لذلك تكون الاستعانة نفسها عبادة، ويكون الشعور بالحاجة قوةً لا عجزًا مذمومًا.

وتشمل الاستعانة أمور الدين والدنيا. يستعين بالله على الإخلاص، وفي طلب الرزق، ومواجهة المرض والمخاوف، ويأخذ بالأسباب التي أباحها. توحيد الاستعانة لا يعني إنكار عمل المخلوق القادر في حدود قدرته، فقد حكى القرآن طلب المعونة في عمل حسي واضح.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]

طلب ذو القرنين قوة القوم في بناء الردم، ولم يكن ذلك منافيا لتوحيده؛ لأنه طلب منهم ما يقدرون عليه، وجعل تمكين ربه خيرًا، وبقي يعلم أن نجاح السبب من فضل الله. فالممنوع أن يتعلق القلب بالمخلوق استقلالًا، أو يسأله ما لا يقدر عليه إلا الله، أو يصرف له استعانة هي عبادة. أما التعاون المشروع فجزء من السنن التي خلقها الله، ويصح التوحيد حين تعمل الجوارح بالسبب ويبقى اعتماد القلب على مسببه.

وفي الحياة يختلط الأمر على الإنسان. قد يقول إنه يستعين بالله، ثم لا يهدأ إلا إذا رضي شخص بعينه، أو لا يرى طريقًا إذا سقط سبب واحد. وقد يدعي التوكل، ثم يترك التعلم والمشاورة والعمل. الجملة القرآنية تصلح الطرفين: ترد القلب إلى الله، وترد الجوارح إلى عبادة مأمورة. لا عبادة بلا عون، ولا صدق في طلب العون مع الإعراض عن الأمر.

وهنا تبلغ كلمة التوحيد ذروتها الحية. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تخلّص الحب والذل والعمل من الشريك، وترد الغاية كلها إلى الله، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تخلّص العبد من توهم الاستقلال، وترد القدرة والتوفيق إليه. الأولى تعصمه من التوزع، والثانية من العجب؛ الأولى تمنع أن يقصد بعبادته غير الله، والثانية تمنع أن يرى عبادته قائمة بنفسه.

فلا عجب يفسد العبادة، ولا عجز يتستر باسم الافتقار. يعمل العبد لأن الله أمره، ويستعين لأن قلبه وجوارحه لا تستغنيان عن توفيقه. وكلما ارتفع مقام العمل ازداد افتقاره؛ فالأنبياء أكمل الناس عبادة وأكثرهم دعاء، ومن فتح الله له باب طاعة احتاج إلى عونه في إخلاصها وموافقة السنة والثبات بعدها وقبولها. الاستعانة لا تسبق العمل وحده، بل تصاحبه وتحرس خاتمته.

دعاء علّمه النبي ﷺ لمن يحب

جمع النبي ﷺ الذكر والشكر والعبادة في دعاء واحد، وجعل طلب العون سابقًا عليها. أخذ بيد معاذ بن جبل رضي الله عنه وأخبره بحبه، ثم أوصاه ألا يترك أن يقول دبر كل صلاة:

«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» (سنن أبي داود، 1522، وإسناده صحيح؛ وأخرجه النسائي، 1303، بلفظ: «رَبِّ أَعِنِّي...»).

لم يعلّمه أن يقول: سأعبدك بقوتي، ولا أن يطلب العون من غير سعي. سأله عونًا على ثلاث حركات تحفظ الدين: ذكر يمنع الغفلة، وشكر يمنع جحود النعمة، وحسن عبادة يمنع أن يكتفي العبد بكثرة العمل مع فساد القصد أو مخالفة السنة. هكذا تفسر السنة الاستعانة داخل العبادة، لا خارجها.

وفي وصف العبادة بالحسن تنبيه إلى أن المقصود ليس مجرد وقوع الفعل. حسنها بإخلاصها لله وموافقتها لهدي رسوله ﷺ وقيام القلب فيها بما يليق. وقد يعمل الإنسان كثيرًا ثم يطلب رؤية الناس، أو يخترع طريقًا لم يشرعه الله، أو يؤدي العمل بجسد غائب القلب. طلب المعونة اعتراف بأن إصلاح هذه الطبقات كلها فضل من الله، مع وجوب المجاهدة والتعلم والتوبة.

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ...» (صحيح البخاري، 6502).

يرتب الحديث طريق المحبة: تبدأ القربة بما افترض الله، ثم تزيدها النوافل. فلا تُطلب محبته بإهمال واجب في سبيل حال وجداني، ولا تُجعل النوافل ستارًا للتقصير في الحقوق. وحين يحب الله عبده يسدده ويحفظ جوارحه في طاعته؛ لا بمعنى حلول أو اتحاد، تعالى الله، بل بتوفيق خاص يثمر استقامة القلب والعمل.

العهد الذي يفتح سؤال الهداية

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 5-7]

لم تنته الفاتحة عند إعلان العبادة والاستعانة، بل خرج منهما طلب الهداية. من عبد الله واستعان به عرف أنه لا يستغني عن دلالته وتوفيقه في كل خطوة. فلا يزكي نفسه بعهد قاله، ولا يظن أن معرفة التوحيد تعصمه من الزيغ بلا افتقار. يطلب الصراط، ويطلب الثبات عليه، ويطلب أن يسلك طريق من أنعم الله عليهم.

وهذا يحفظ حرارة التوحيد من التحول إلى ثقة بالنفس أو خصومة مجردة مع المشركين. الموحِّد لا يقف خارج الخطر؛ هو يسأل ربه أن يحفظ توحيده، ويخاف على قلبه من الند، ويجدد العبودية في كل ركعة. وكلما عرف عظمة الحق الذي يحمله، ازداد تواضعًا ورحمة ودعاء، لا كبرًا على الناس ولا أمنًا من مكر الله.

حين يقول العبد هذه الجملة بصدق، تنتظم علاقته بالعالم: يحب المخلوق من غير أن يؤلهه، ويستعمل السبب من غير أن يعبده، ويطلب العون من الناس فيما يقدرون عليه من غير أن يسلم لهم قلبه، ويطيع الله وهو يسأله العون على الطاعة. فهذه ليست إعادة لشرح الفاتحة، بل ثمرة التوحيد حين يصير عهدًا بعد أن سقط الشريك وانكشف الند.

كلما وقفت بين يديه

كلما وقف العبد بين يدي الله عاد إلى كلمة التوحيد من داخلها: نزع عن الخلق حق العبادة، ثم لم يترك قلبه خاليًا، ملأه بمحبة ربه لكماله وإحسانه، وتعظيمه، ورجائه، والافتقار إليه. قد تكثر الأبواب حوله، وتتعارض رغبات الناس، وتسقط أسباب وتقوم أخرى، لكنه لا يعود رجلًا تتشاكس عليه الجهات؛ غايته واحدة، ومحبوبه الأعلى واحد، وربه واحد.

ولا يدّعي بهذا العهد قوةً من نفسه. كلما قال: نعبد، تذكر حق الله، وكلما قال: نستعين، اعترف بفقره. فإذا زل لم يجعل الزلة ربًّا يحكم بقية الطريق، وإذا أطاع لم يجعل الطاعة ملكًا يعجب به. يعود إلى ربه عبدًا، ويطلب منه أن يحقق في قلبه ما ينطق به لسانه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]

هُوَ اللَّهُ

كيف يبني القرآن علم العبد بربه؟

وتبلغ كلمة التوحيد حرارتها حين لا تبقى نفيًا للند، بل امتلاءً بالله. يترك العبد ما يحب إذا عارض محبوبه الأعلى، ويقبل على الطاعة لا لأنه مكره من الخارج، بل لأنه وجد في رضا ربه غايته. فالعبادة غاية محبة مع غاية ذل وتعظيم؛ وإذا خلا أحدهما اختل القلب: محبة بلا خضوع دعوى، وخضوع بلا محبة جفاف، والمعرفة الصادقة تجمعهما في ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

حين قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دخل إلى معرفة تملأ العبادة هيبةً وأنسًا: ربٌّ عليٌّ فوق عرشه، وتخفض امرأة صوتها في ناحية بيت فيسمعها؛ ويقوم عبد في جوف الليل فيراه؛ ويدخل رسولان على فرعون فيقال لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ ويهمس الداعي بحاجته فيجيبه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. قبل أن يفسر القرآن الجمع بين هذه المعاني، يترك القلب أمام جلالها: وعلوه سبحانه لا ينافي إحاطة علمه وسمعه وبصره؛ فلا يخفى عليه سر، ولا تضيع في ملكه همسة أو سجدة.

هذه الصفات تثبت كما جاءت في الوحي: علمًا محيطًا، وسمعًا وبصرًا كاملين، ومعيةً وقربًا يليقان بجلال الله، مع إثبات علوه على خلقه واستوائه على عرشه. فلا تحرّف النصوص خشية توهم باطل، ولا تقاس صفات الخالق بصفات المخلوق، ولا يخاض في كيفيتها؛ بل يجمع ما جمعه الله من غير تمثيل ولا تعطيل، مع تنزيهه سبحانه عن الحلول والامتزاج بخلقه.

يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى

قبل أن تتكلم

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: 5-8]

لا تأتي جملة ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ منفردة عن سياقها. قبلها استواء الرحمن على العرش، وملكه لما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى؛ وبعدها التوحيد والأسماء الحسنى. فالذي علا على عرشه وملك الوجود كله لم يبعد عنه خفيٌّ في قلب، ولم يحجبه علوه عن همسة عبد. يجتمع علوه وإحاطة علمه بلا تناقض؛ لأن صفات الخالق لا تقاس بصفات المخلوق.

والمقابلة بين الجهر والسر ترد الإنسان إلى حقيقة نفسه. قد يحسن ألفاظه حين يسمعه الناس، ثم يخفي نيةً تطلب المنزلة، أو ضغينةً تتزين بالصمت، أو خوفًا من مخلوق يزاحم التوكل، أو طاعةً ظاهرها لله وباعثها

ثناء الناس. وعلم الله محيط بما أُسرَّ، وبما هو أخفى من السر مما لم يتبين للعبد أو لم يقع بعد، على ما ذكره المفسرون في سعة دلالة الآية. لا يطرأ على علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، ولا تكشف له الحوادث ما لم يكن يعلمه.

وإذا كان الله يعلم ما تحت الثرى، فليس خفاء الباطن عجزًا في الدليل، وإنما هو ستر عن الخلق وحدهم. قد ينجح المرء في بناء صورة لا ينفذ إليها الناس، وقد يعجز أقربهم عن فهم ما يختلج في صدره؛ لكن السر لا يتحول بذلك إلى عالم خارج علم الله. وفي هذا أنس للمؤمن كما فيه مراقبة: يعلم الله ألمًا لم يحسن صاحبه بيانه، وصدقًا لم يفهمه الناس، ومجاهدة لم يشهدها أحد؛ فلا يجعل معرفة الخلق ميزان الحقيقة ولا ثناءهم ميزان القبول.

الخالق يعلم ما خلق

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 13-14]

سورة الملك لا تجعل العلم الإلهي فكرة معلقة، بل تربطه بالخلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. فالذي خلق الصدر وما يحمل، واللسان وما ينطق، والعقل وما يوازن، لا يخفى عليه شيء من صنعه. وجاء الاسمان ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في موضعهما؛ فاللطيف لا تخفى عليه الدقائق، والخبير محيط ببواطن الأمور وظواهرها، لا يحول بين علمه وبين شيء حجاب.

لهذا يستوي في أصل العلم الإسرار والجهر، وإن اختلفا في حكم العبد وآثارهما. ليست قوة الصوت هي التي تبلغ علم الله، ولا السكون هو الذي يحجبها. والجملة تقيم رقابةً أصدق من مراقبة البشر؛ لأن مراقبة الناس تنتهي إذا غابوا أو عجزوا، أما علم الله فلا يغيب عنه عمل، ولا تخفى عليه نية ترفعه أو تفسده.

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 29]

تجمع الآية بين ما في الصدور وما في السماوات والأرض، حتى لا يتوهم الإنسان أن باطنه زاوية صغيرة لا تتعلق بعلم الرب المحيط. وتختم بالقدرة؛ فإحاطة علمه مقرونة بكمال قدرته وحكمه وجزائه. يعلم الطاعة الخفية فلا يضيعها، ويعلم الظلم المستور فلا يفوته، ويعلم الضعف الذي لم يحسن صاحبه بيانه، ويعلم الرياء الذي لم يكتشفه المادحون.

الإحسان: أن تعبده وهو يراك

سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان، فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (صحيح البخاري، 50).

لم يجعل النبي ﷺ أثر الإيمان بعلم الله تمرينًا ذهنيًا، بل نقله إلى هيئة العبادة. العبد في الدنيا لا يرى ربَّه بعينيه، والحديث لا يأمره أن يتكلف تصور كيفية صفات الله؛ بل يعبده على مقام المراقبة واستحضار الجلال، فإن الله يراه. عندئذ تصبح الصلاة التي لا يشاهدها الناس موضع صدق، ويصير ترك المعصية في الخلوة من أجلِّ أعمال المراقبة، وتتحرر الطاعة من حاجتها إلى شاهد بشري.

والإحسان لا يعني تكلف شعور دائم أو استنطاق القلب حتى يمرض بالوسواس. المطلوب صدق الوجهة، ومجاهدة الباعث، ورد العمل إلى الله كلما نازعته حظوظ النفس. ومن علم أن الله يعلم السر وأخفى لم يزعم العصمة لباطنه، ولم ييأس من إصلاحه؛ بل صار أصدق في الاعتراف، وأسرع في التوبة، وأقل اغترارًا بصورة صالحة يراها الناس.

الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: 217-220]

جاء الأمر بالتوكل على العزيز الرحيم، ثم علله بمشهد لا يراه أكثر الناس: يراك حين تقوم، ويرى تقلبك في الساجدين. البصر هنا ليس وعيدًا مجردًا؛ إنه أنس العابد الذي أخفى قيامه، وتثبيت لمن توكل ولم يجد من الخلق شاهدًا على صدقه. العزيز قادر على نصره، والرحيم لا يضيع تعبده، والسميع العليم يعلم دعاءه وباعثه.

وفي الجهة المقابلة يواجه القرآن من ينهى عبدًا إذا صلى بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: 14]. فالبصر الإلهي يؤنس الساجد ويردع المعتدي في آن واحد. من عمل في خفاء لم يحتج إلى عين بشرية تمنحه قيمة عمله، ومن ظلم في خفاء لم يصنع لنفسه غيبة عن رب يرى فعله وحاله.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]

تتسع الآية حتى تشمل ورقةً تسقط وحبةً في ظلمات الأرض. ليست الغاية أن يزداد القارئ دهشةً من كثرة المعلومات فحسب، بل أن يعرف أن الصغير في ميزان الخلق لا يخرج عن علم الله. دمعة كتمها صاحبها، وصدقة أخفاها، وكلمة خير حبسها خوفًا ثم قالها، ومجاهدة لم يشهدها أحد: لا تضيع لأنها لم تدخل ذاكرة الناس.

وفي الجهة الأخرى لا يصغر الذنب لأن مكانه ضيق أو أثره بعيد عن العيون. معرفة الإحاطة تعيد ترتيب الخلوة: ليست الخلوة موضعًا غاب عنه الرقيب، بل موضع انقطعت فيه شهود الخلق وبقي علم الخالق. وما بين الخوف والرجاء ينشأ قلب لا يختبئ من الله، بل يفر إليه: يصدق في سره، ويستغفر من خفي عيبه، ويعمل ولو لم يذكره أحد.

غير أن العلم بالقول قبل خروجه لا يلغي دلالة السمع حين ينطق اللسان. فالقرآن لا يكتفي بأن يقول إن الله يعلم شكوى المرأة؛ بل يفتتح سورةً كاملة بإعلان أن الله سمعها. ومن باطن لا يخفى ننتقل إلى صوت ضعيف لم يضع في زحام العالم.

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ

صوت خفي على من في البيت

قالت عائشة رضي الله عنها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾» (سنن النسائي، 3460، وإسناده صحيح).

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]

كانت عائشة رضي الله عنها في ناحية البيت ويخفى عليها بعض الكلام، وسمع الله الحوار كله. لم تكن خولة صاحبة سلطان، ولا جاءت في قضية تتعلق بجيش أو دولة؛ جاءت تشكو كلمةً قيلت داخل بيت، ترتب عليها ألم وخوف على أسرة. فافتتح الله سورةً بسماع قولها، وذكر شكواها إليه، ثم أنزل حكمًا يعالج المظلمة ويضع للكلمة تبعتها.

هذا الافتتاح يعيد ميزان الأهمية. ما يراه الناس شأنًا منزليًا صغيرًا قد يكون عند الله حقًا لا يهمل، وصوت المرأة التي لا تملك دفع الضرر لم يضع لأن أصحاب القوة لم يسمعوه. يسمع الله الأصوات جميعًا

على اختلاف اللغات والحاجات، لا يشغله صوت عن صوت، ولا تختلط عليه شكوى بشكوى، وسمعه كامل يليق بجلاله، لا يشبه سمع المخلوق المحدود.

وجاء الفعل مرتين: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ ثم ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾. الأول يثبت وقوع السماع لهذه القضية، والثاني يفتح المعنى على كل لحظة من الحوار. ثم يختم باسميه: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ سمع القول، وأبصر الحال، وعلم ما وراء الألفاظ من حاجة وصدق وألم.

الكلمة لا تفلت

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181]

الذي سمع شكوى المظلومة سمع كذلك قول المتطاولين. السمع الإلهي باب رجاء للمحتاج، وباب وعيد لمن ظن أن الكلمة تنتهي حين تتبدد في الهواء. لم يقل النص: علم قولهم فحسب، بل أكد: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، ثم قرن القول بالكتابة والجزاء. للكلمات وزن، منها ما يحيي قلبًا، ومنها ما يهدم حقًا، ومنها ما يتجرأ على الله، وكلها داخلة في سمعه وعلمه.

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجالًا اختلفوا: هل يسمع الله كلامهم إذا خفضوا أصواتهم؟ فنزل في ظنهم قول الله تعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: 22-23] (صحيح البخاري، 4817). فساد الظن بالسمع والعلم لم يبق مسألة نظرية؛ أفسد العمل وأورد الخسارة.

من هنا تتغير المجالس المغلقة والرسائل الخاصة وهمس الخصومة. لا يحتاج المؤمن إلى أن يتخيل اطلاع الناس على كلامه حتى ينضبط؛ يكفيه أن يعلم أن السميع يسمع. وليس مقتضى ذلك الصمت عن الشكوى المشروعة؛ فقد اشتكت خولة إلى الله وجادلت رسوله ﷺ، فكان في قصتها بيان الحكم. والفرق بين كلام يطلب الحق وكلام يأكل الأعراض أو يزين الباطل في حقيقته ووجهته، لا في ارتفاع صوته أو خفائه.

المظلوم ليس منسيًّا

لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، حذره من الظلم فقال:

«وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» (صحيح البخاري، 2448).

الحديث لا يعد المظلوم بأن كل صورة يختارها للعقوبة تقع فورًا، ولا يبيح له العدوان، لكنه يقطع وهم الظالم أن ضعف خصمه يحجبه عن الله. قد يغلق الظالم أبواب البشر، ويملك الشهود والنفوذ، ولا يملك أن يضع بين دعوة المظلوم وبين الله حجابًا. فيورث هذا الضعيف صبرًا ورجاء، ويورث القوي خوفًا من دعوة تخرج من قلب مكسور.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102] (صحيح البخاري، 4686).

الإملاء ليس غفلة ولا عجزًا، وتأخر الجزاء لا يعني أن القول لم يُسمع أو أن الحق سقط. والسميع الحكيم يمهل من يشاء ويأخذ من يشاء في الوقت الذي يشاء، فلا يقيس المؤمن عناية الله بسرعة ما يرى، ولا يجعل امتداد الظلم دليلًا على خفاء المظلمة.

كيف تعيش باسم السميع؟

يمنح اسم السميع للمؤمن مراقبةً وأنسًا معًا. ينقي كلامه، فلا يكذب لأن الناس لا يملكون الدليل، ولا يخون في رسالة خاصة، ولا يتستر بعبارات الحق ليؤذي. وفي الوقت نفسه لا يستوحش حين يعجز عن بيان ألمه، فقد يخفى على من حوله بعض ما يقول، ولا يخفى على الله. السمع الذي يخيف الظالم هو نفسه الذي يطمئن المظلوم، والصفة الواحدة تربي العدل والرجاء معًا.

وعندما يسمع العبد عن الله، يعلم أن سمعه صفة كمال تليق به، لا يخفى عليه صوت. وهو سبحانه سميع عليم، يجري حكمه وعدله وإجابته وجزاءه على وفق علمه وحكمته. ومن عرف أن الله يسمع تحاوره في بيته، راقب أدبه مع أهله قبل أدبه في العلن؛ ومن عرف أنه يسمع دعاء المظلوم، خاف من حق لا يستطيع صاحبه استرداده اليوم.

لكن السمع والبصر في القرآن لا يصنعان مراقبةً ساكنة فقط. حين أرسل الله موسى وهارون إلى أعتى طاغية، جعل استحضار سمعه وبصره سببًا في تثبيتهما: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾. هناك تنتقل المعرفة من حماية الضعيف في شكواه إلى حمل الرسول على أداء التكليف.

إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى

أمام فرعون

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 43-46]

لم ينكر موسى وهارون عليهما السلام الخوف، ولم يعاتبهما القرآن على رؤية خطر فرعون. قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾، فالطاغية يملك جندًا وعقوبةً وتاريخًا من البطش. لكن الخوف لم يكن نهاية القرار. جاء الجواب من الله لا بإلغاء المهمة ولا بوعد أن الطريق خالٍ من الأذى، بل بكلمة تغيّر وزن القوة: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

هذه معية خاصة بالنصر والتأييد والحفظ في مقام الرسالة. نثبتها كما أخبر الله، مع إثبات علوه فوق عرشه؛ فهي معية تليق به لا تقتضي حلولًا في الخلق ولا اختلاطًا بهم. وهو مع خلقه بعلمه وسمعه وبصره وقدرته، ويخص رسله وأولياءه بمعية الحفظ والنصر والتأييد.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4]

جمعت الآية بين الاستواء على العرش والمعية، فسدّت طريقين من الانحراف: لا تُجعل المعية حلولًا واختلاطًا بالخلق، ولا يُجعل العلو غيابًا عنهم. هو فوق عرشه كما أخبر، ومع خلقه بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره، لا يخفى عليه مكان ولا عمل. ولهذا ختمت بالبصر؛ فثمرة المعية العامة مراقبة لا توهّم كيفية، وثمرة المعية الخاصة ثبات واستعانة وطاعة.

وجاء بيان مقتضى هذه المعية في الآية نفسها: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾. يسمع ما يقولانه وما يرد به فرعون، ويرى موقفهما وموقفه، فلا يضيع من المشهد شيء. ليسا وحدهما أمام السلطة، وإن كانا في الظاهر رجلين يدخلان على ملك متجبر. وهذه المعرفة لا تجعل الخطر وهمًا، لكنها تمنعه من أن يستولي على القلب حتى يصرفهما عن أمر الله.

المعية لا تلغي التكليف

تأمل أن وعد المعية جاء بعد أوامر دقيقة: اذهبا، وقولا له قولًا لينًا. لم يقل لهما: ما دمت معكما فلا حاجة إلى رسالة واضحة ولا أدب ولا سبب. معية الله لا تبرر التهور، ولا تعفي من إعداد القول، ولا تمنح صاحبها عصمةً لمجرد أنه رفع شعار الحق. بل أخص الناس بهذه المعية هم أصدقهم اتباعًا لأمره وتقوى له.

ولهذا لم تكن الشجاعة القرآنية صراخًا أعلى من صوت الخصم. أمرهما بالقول اللين مع فرعون، مع أن طغيانه قد بلغ الغاية. اللين هنا طاعة لا مداهنة، والحجة لا تسقط لأن المخاطب جبار. ومن عرف أن الله يسمع ويرى لم يحتج إلى استعراض بطولة أمام الناس؛ يكفيه أن يؤدي ما أمر به، مضبوطًا بالحق والرحمة والحكمة.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35]

في سورة القصص جاءت المعونة بصور عملية: شد العضد بالأخ، وإقامة الحجة بالآيات، ومنع يد العدو، ووعد الغلبة. الله قادر أن ينصر موسى وحده، لكنه جعل أخاه سببًا يعينه. فلا تعارض بين الاستمداد من معية الله والاستعانة بسبب مشروع؛ السبب نفسه من عطائه، ولا يستقل بالنصر عنه.

من الغار إلى كل موقف طاعة

قال أبو بكر رضي الله عنه وهو مع النبي ﷺ في الغار: لو أن أحد المشركين نظر تحت قدميه لأبصرهما، فقال له رسول الله ﷺ:

«مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا» (صحيح البخاري، 3653).

لا يعني الحديث أن الله ثالث ثلاثة في مكان، تعالى الله عن ذلك؛ بل يقرر معية الحفظ والنصر التي عبّر عنها القرآن: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]. كان الله مع نبيه وصاحبه بالحفظ والنصر والتأييد؛ فلم يقرأ النبي ﷺ قرب أقدام المشركين منفصلًا عن وعد ربه.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]

تربط الآية المعية بالتقوى والإحسان، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153]. فمن أراد أثر هذه المعية في قلبه لم يطلبه بعبارة يكررها وهو مقيم على ظلم، بل بطاعة وصبر وتقوى. وقد يبتلى المتقي ويؤذى، كما أوذي الأنبياء، لكنه لا يكون متروكًا؛ فمعية الله لا تعني دائمًا سلامة البدن أو تحقق النتيجة العاجلة، بل حفظ الدين وتثبيت القلب ونصرًا يقدره الله بصورته ووقته.

ولا تنحصر هذه المعية في مواجهة طاغية أو مطاردة عدو. يجدها المؤمن في صبر على مرض لا يراه الناس، وفي ترك حرام تهيأت أسبابه، وفي كلمة حق صغيرة يؤديها بأدب، وفي عبادة يثبت عليها حين يفتر من حوله، وفي مصيبة يحبس عندها لسانه عن السخط. الموقف قد يبدو هادئًا في أعين الخلق، لكنه عند الله موضع تقوى وصبر وإحسان.

حين يدخل المؤمن موقفًا يخافه، لا يطلب من نفسه ألا يشعر بشيء؛ إنما يمنع الخوف من أن يعطل الواجب أو يجره إلى معصية. يستعد، ويستشير، ويتخذ السبب، ثم يتذكر: الله يسمع ما يُقال، ويرى ما يُفعَل، ولا يخرج الخصم عن ملكه. عندئذ يعود الطاغية إلى حجمه الحقيقي: مخلوق لا يقدر إلا بقدر ما أقدره الله عليه، ولا يخرج فعله عن ملك الله وقدره.

وفي المقابل لا يستعمل المؤمن المعية لتزكية كل موقف اختاره. قد يندفع به الحماس إلى خصومة لم يأمره الله بها، أو يسيء القول ثم يسميه ثباتًا. النص يحكمه: موسى وهارون مأموران، ومحددان في القول، وخائفان مستعينان. الشجاعة الموصولة بالله ليست ثقة بالنفس مطلقة، بل ثقة بالرب مع عبودية دقيقة لأمره.

ومن معية النصرة ينتقل القلب إلى قربٍ آخر يعيشه كل عبد، لا في مواجهة فرعون وحده، بل في خفاء الدعاء وانكسار السجود. حين يسأل الناس عن الله يأتي الجواب: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

فَإِنِّي قَرِيبٌ

جواب بلا مسافة

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]

جاءت الآية بين أحكام الصيام. يذكر الله فرض الشهر، والتكبير والشكر، ثم يفتح باب السؤال عنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. وفي مواضع كثيرة من القرآن يأتي الجواب بعد السؤال بلفظ ﴿قُلْ﴾، أما

هنا فجاء الجواب مباشرًا: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. لا واسطة في الدعاء، ولا باب يحرسه مخلوق، ولا حاجة إلى رفع الصوت كي يبلغ النداء.

قرب الله حق كما أخبر، يليق بجلاله ولا يقاس بقرب المخلوق. وهو سبحانه العلي فوق عرشه، قريب من داعيه وعابده، يسمع نجواه ويجيب دعاءه؛ فلا يحرف القرب إلى معنى مفرغ، ولا يقاس على قرب الأجسام، ولا يخوض العبد في كيفيته. الوحي يثبت علوه وقربه جميعًا، والعقل يسلم للخالق ما لا يقيسه على المخلوق.

والآية لا تذكر القرب مجردًا، بل تظهر أثره: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. هو قرب حقيقي يليق بجلاله، تظهر آثاره في سماع الدعاء وإجابته والعناية بالداعي. ثم تصل الدعاء بالعبودية: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾. العبد يدعو ربه، وربه يدعوه إلى الإيمان والطاعة؛ ومن أراد الرشد استجاب لله كما يرجو إجابة دعائه.

لا تدعون أصم ولا غائبًا

كان الصحابة في سفر يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال لهم النبي ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

«أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ» (صحيح مسلم، 2704).

يربط الحديث بين السمع والقرب والمعية. انخفاض الصوت لا يبعد الدعاء، وارتفاعه لا يقرب الغائب؛ لأن المدعو سميع قريب. وهي معية تليق بالله، مقتضاها علمه وسمعه وإحاطته، وهو سبحانه فوق خلقه. ثم علّم النبي ﷺ أبا موسى في السياق نفسه كلمة الافتقار: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». فالقرب لا يغذي شعور الاستقلال، بل يكشف افتقار العبد في حركته وقوته إلى الله.

ومن عرف أن الله قريب لم يحتج إلى تكلف هيئة مخصوصة أو رفع صوته حتى يصدق دعاؤه. يدعوه في ازدحام الناس وفي ظلمة الليل، عند فصاحة البيان وعند عجز اللسان. ولا تعني الإجابة ضمان الصورة التي اختارها العبد أو الوقت الذي حدده؛ فقد وعد الله بالإجابة، وتجري إجابته على ما يقتضيه علمه وحكمته ورحمته، والعبد يوقن بوعده ولا يحاكم ربه إلى فهمه المحدود.

أقرب ما يكون وهو ساجد

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» (صحيح مسلم، 482).

يبلغ الجسد غاية الانخفاض، ويبلغ العبد مقام القرب من ربه. السجود لا يرفع الإنسان في أعين الناس؛ يضع جبهته على الأرض، ويقر بعبوديته، ومن هذا الذل لله يأتي الشرف. لم يجعل النبي ﷺ القرب فكرةً يتأملها العبد من بعيد؛ جعلها لحظةً يكثر فيها الدعاء. فالمعرفة الصحيحة بالصفة تثمر عبادة تناسبها.

ولا يعلم العبد كيفية هذا القرب، ولا يحوله إلى شعور يتباهى به. قد يسجد وقلبه مشتت فيجاهد حضوره، وقد يدعو ولا يرى أثر دعائه قريبًا فيثبت على وعد الله. العبودية ليست ادعاء مقام، بل افتقار متكرر: كلما اقترب بالسجود ازداد علمًا بأنه عبد، وأن ربه غني سميع قريب.

قد يسيء الإنسان فهم القرب فيحوله إلى ألفة تذهب التعظيم، أو يسيء فهم العظمة فيجعلها بعدًا يمنعه من الدعاء. القرآن يجمع الأمرين: قريب يجيب، ورب يأمر بالاستجابة والإيمان. لا يدعوه العبد كما يخاطب ندًّا، ولا يخاف منه خوفًا يقطعه عن التوبة والدعاء؛ بل يدعوه بمحبة وذل ورجاء وهيبة، ويعلم أن كلمته مسموعة، وعمله منظور، وسره معلوم.

ولهذا يتغير الدعاء من طلب عابر إلى موقف معرفة. قبل أن تسأل تعلم أنه يعلم حاجتك، وحين تنطق تعلم أنه يسمعك، وإذا تأخر ما تريد تعلم أنه لم يغب عنك، وإذا سجدت علمت أن قربك من ربك يزيدك افتقارًا وعبودية. فلا تترك الدعاء لعجز العبارة، ولا تجعله بديلًا عن الطاعة والأسباب، ولا تقس إجابة الله على استعجالك.

في آخر الليل يضع عبد جبهته على الأرض، وقد لا يعرف أحد قيامه، ولا يسمع أحد دعاءه، ولا يدرك أحد ما حمله إلى السجود. هناك تلتقي المعاني من غير تلخيص: ربه يعلم سره، ويرى قيامه وتقلبه في الساجدين، ويسمع نجواه، وهو قريب مجيب.

وما دام الذي أحاط به علمًا وسمعًا وبصرًا هو الرحمن الرحيم، فلم تكن هذه الإحاطة بابًا للفرار منه، بل بابًا للفرار إليه: يعلم ضعف العبد قبل أن يشرحه، ويسمع رجوعه إذا خفت صوته، ويرى خطوته إلى الطاعة، وقد فتح لعباده باب رحمته ودعاهم إلى الدخول فيه.

ولا تورث هذه الإحاطة مراقبةً باردة، بل أُنسًا تحفظه الهيبة. قد يغيب من يفهمك، ويخطئ الناس قراءة صمتك، وتعجز عبارتك عن حمل ما في قلبك؛ لكن ربك يعلم قبل أن تنطق، ويسمع وإن خفت

الصوت، ويرى صدق الخطوة وإن لم يشهدها أحد. فإذا استقرت هذه المعرفة خفّ تعلق القلب بأن يراه الخلق، وكفاه أن الله يعلمه، ويسمع دعاءه، ويرى حاله، ويحيط به رحمةً وعلمًا.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

قد يحمل العبد ذنبًا يخجل من تسميته، أو ألمًا طال حتى خشي أن يكون منسيًّا. والذي يعلم ضعفه قبل أن ينطق، ويسمع شكواه حين تخفى على من حوله، ويرى موضع سجوده وموضع زلته، هو الرحمن الرحيم. رحمته ليست غفلةً عن الذنب ولا إلغاءً للحساب؛ يعلم السر وأخفى، ثم يفتح باب الرجوع، ويرى النقص كله، ثم لا يحجب فضله عمن صدق في الإنابة.

وهذان الاسمان ليسا تكرارًا لمعنى واحد لا زيادة فيه. «الرحمن» أبلغ في الدلالة على سعة الرحمة وعظمتها، وهو اسم اختص الله به؛ و«**الرحيم**» يثبت له صفة الرحمة ووصول آثارها إلى من يشاء من عباده، وللمؤمنين منها نصيب خاص في الهداية والمغفرة والولاية والجزاء. يجتمع الاسمان فيرى القلب رحمة واسعة في كمالها، واصلة في آثارها؛ فلا يبقى معنى الرحمة فكرة عامة، بل يصير معرفة بالرحمن الرحيم.

في هذه المعرفة جمال يفتح باب المحبة والأنس، وجلال يورث التعظيم. فرحمته ليست رحمة عاجز يرقّ ولا يملك، ولا عاطفة مخلوق تغلبه؛ إنها رحمة الملك القادر، العليم الحكيم. لذلك يفر العبد إليه، ويأنس بذكره من غير أن ينسى مقام العبودية، ويرجوه من غير أن يجعل الرجاء ستارًا للإصرار.

اسمان من رحمة واحدة

جاء «الرحمن الرحيم» في الفاتحة بين ربوبية العالمين وملك يوم الدين، في صورة تجمع الرحمة بالربوبية والحساب. وهنا تتسع الدلالة: الرحمة خبرٌ كتبه الله على نفسه، ونداءٌ يبلغ المسرف، ووصفٌ يجتمع مع شدة العقاب، ورحمةٌ تظهر داخل التشريع نفسه؛ فلا تبقى كلمةً يطمئن إليها القلب على الإجمال، بل معرفةً تحكم الرجاء والخوف والعودة.

ولا يحتاج القلب إلى أن يختار بين الحب والهيبة. من عرف سعة رحمة الله وإحسانه أحبه، ومن عرف جلاله خضع له؛ ومن جمعهما عرف أن الأنس بالله لا يخرجه من العبودية، وأن الخوف منه لا يطرده عن بابه. الرحمة الثابتة بخبر الله تدعو المذنب إلى العودة وتحرسه من الأمن، وتكشف له أن الأمر والنهي صادران عن علم من خلقه وعلم ضعفه ورحمه.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

خبر لا تصنعه حاجتك

تتغير مشاعر الإنسان سريعًا. إذا انفتح له باب قال: ربي رحيم، وإذا تأخر عنه ما يحب خاف أن تكون الرحمة قد بعدت. فتأتي سورة الأنعام بخبر لا يقوم على مزاج العبد ولا على قراءته الناقصة للواقعة. يبدأ السياق بسؤال الملك: لمن ما في السماوات والأرض؟ ثم يتولى الله الجواب، ويثبت بعده ما كتبه على نفسه، ويصل ذلك بيوم لا ريب فيه.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 12].

جاءت الرحمة بعد الملك الشامل. ما في السماوات والأرض لله خلقًا وملكًا وقهرًا، ومع ذلك لا يقدم القرآن هذا الملك قوة مجردة تخيف الضعيف؛ يعرف المالك عباده بأنه كتب على نفسه الرحمة. فالرجاء هنا مبني على من يملك كل شيء، لا على جهة تعطف ثم تعجز، أو تعد ثم يغلبها غيرها.

وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وعد تفضل به سبحانه؛ لم يوجبها عليه أحد، ولم يستخرجها العباد منه بحق سابق. هو الذي كتب، وهو الذي أخبر، وخبره أصدق الخبر. لهذا يستند القلب إلى الرحمة بأدب العبودية: يوقن بها لأنه صدق الله، ولا يحولها إلى حجة يخاصم بها ربه أو يبرر بها ترك أمره.

والرحمة صفة ثابتة لله حقيقة على الوجه اللائق بجلاله، لا تشبه رقة المخلوق التي تعرض له عند رؤية الألم، ولا يلحقها عجز أو اضطراب، ولا نعلم كيفيتها. نثبت ما أثبته الله لنفسه، وننزهه عن مماثلة خلقه؛ فتظل الرحمة رحمة حقًا، ويظل الله ليس كمثله شيء.

حين تفيض الرحمة قبل كل تحفظ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي». صحيح البخاري (3194)، وصحيح مسلم (2751).

هذا خبر جاء من عنده، لا استنتاجًا صنعه العبد ليهدئ خوفه. قبل أن يعرف الإنسان كيف يعتذر، وقبل أن يرفع أول دعاء، كان ربه قد كتب في كتاب عنده فوق العرش أن رحمته غلبت غضبه. ليست الرحمة طارئة على تدبيره، ولا بابًا ضيقًا لا يفتح إلا للنادرين؛ هي من كماله الذي عرّف به نفسه.

كم من عبد أمهله الله، وبلغه آية، وأيقظ في قلبه ندمًا، وفتح له طريق الرجوع. يستر عليه ما شاء، ويمنحه لحظة صدق، ويسّر له خطوة إلى الطريق، ثم يقبل توبته إذا صدقت. وراء باب التوبة ليس رب يتبرم بالعائدين؛ بل الرحمن الرحيم الذي يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده كما صح الخبر.

وحين يعرف القلب هذا، يلين موضع قسوته. لا يعود إلى الله كمن يقتحم بابًا لا يؤذن له فيه، بل كعبد دعاه ربه إلى الرجوع، ووعد التائبين بالمغفرة. يحب الرحمن لما عرف من رحمته وإحسانه، ويعظم رب العرش لجلاله؛ فيجتمع الأنس والهيبة في سجدة واحدة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي وجدت صبيها فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ ... لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا». صحيح البخاري (5999)، وصحيح مسلم (2754).

لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة معنى ذهنيًا بعيدًا؛ جعل الصحابة يرون امرأة ضاع منها ولدها، ثم وجدته فضمته وأرضعته. ومع ذلك فكل ما في قلبها رحمة مخلوقة محدودة، ورحمة الله أكمل وأوسع. لا نقيس صفة الله على صفة خلقه، لكننا نفهم من المثل أن باب الرجاء أوسع مما تظنه القلوب التي أكلها اليأس.

رحمة تكتب السلام على العائد

وتعود العبارة نفسها في موضع أقرب إلى قلب المذنب: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

لم يبدأ الخطاب بتعداد خطاياهم، بل قال لنبيه: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. سلام يسبق بيان الطريق، ثم يأتي الخبر: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. الاسم هنا «ربكم»؛ الذي يربيهم ويصلحهم لم يطردهم بسبب ما وقع، بل دلهم على باب التوبة والإصلاح.

والجهالة في كلام السلف لا تنحصر فيمن لم يعرف الحكم؛ فكل من عصى الله فهو جاهل حال معصيته من جهة ما غلب عليه من سفه الهوى وضعف البصيرة، وإن كان يعلم أصل التحريم. لا يخفف ذلك حقيقة الذنب، لكنه يمنع المذنب من أن يتصور أن علمه السابق بالحرمة أغلق عنه كل رجوع.

ثم لم تقل الآية: تاب بقوله فقط، جمعت بين التوبة والإصلاح. الرحمة لا تطلب عرضًا مؤثرًا ولا صورة مثالية أمام الناس، بل رجوعًا صادقًا يظهر أثره بقدر الاستطاعة. من ظلم بدأ برد المظلمة، ومن فتح على نفسه باب حرام أغلقه، ومن ترك فرضًا عاد إليه. لا ليشتري الرحمة بعمله، بل ليصدق في استقبال الرحمة التي دعته.

ثم تعود جملة الجمع في الآية الأولى فتضع الرحمة في تمام صورتها: الذي كتب الرحمة هو الذي يجمع الخلق. لم يجعل القرآن القيامة في الطرف المقابل للرحمة؛ من رحمته أن يمهل ويرسل الرسل ويفتح باب التوبة، ومن عدله أن يجمع ويجازي. فذاق القلب أولًا أن ربه كتب الرحمة، ثم عرف أن الرحمة لا تلغي مسؤوليته.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]

هذا العموم يفتح للعبد بابًا لا يضيق بكثرة الخلق ولا بتعدد الحاجات، لكنه لا يُقرأ مبتورًا عن تمام الآية؛ فقد قال سبحانه بعدها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. فرحمته العامة وسعت الخلق في وجودهم وأرزاقهم وإمهالهم، ولرحمته الخاصة بأهل الإيمان والطاعة أسباب دل عليها. الرجاء الصادق لا يلغي التقوى، بل يدفع إليها.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾

حين يصبح الماضي سجنًا

بعض الناس لا تمنعه عن التوبة شهوة حاضرة، بل صورة صنعها عن نفسه: أنا الذي فعلت كذا، وأنا الذي عدت بعد العهد، وأنا الذي لا تصلحني بداية جديدة. يتعامل مع ماضيه كأنه حكم نهائي، ويجعل كثرة الذنب أكبر من رحمة الله. هنا لا يأتي النداء باسم ﴿المذنبين﴾ ولا ﴿العصاة﴾، بل بنداء العبودية الذي لم تسقطه الإساءة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

سمى ما فعلوه إسرافًا، لم يجمله ولم يخفف قبحه. لكنه قال: ﴿عِبَادِيَ﴾. الذنب أفسد فعلهم ولم ينقلهم خارج ملك الله، ولم يمنع أن يبلغهم النداء. ثم نهى عن القنوط؛ لأن القنوط ليس تواضعًا ولا اعترافًا بفظاعة الذنب، بل سوء ظن برحمة الله، وقد يصير بابًا يستبقي صاحبه في المعصية باسم اليأس.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يقطع توهم أن في قائمة الذنوب ما يعجز الغفور، أو أن كثرتها تغلب رحمته إذا صدق العبد في الرجوع. لا يُستثنى ذنب من جهة قدرة الله على مغفرته، ولا من جهة قبول توبة من تاب منه. الذي يحدد الباب ليس حجم الماضي، بل صدق العودة قبل أن يأتي الأجل.

فرح لا يشبه أفراح الخلق

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ...». صحيح مسلم (2747)، وأصله في صحيح البخاري (6309).

تصور رجلًا في أرض مهلكة، انفلتت راحلته وعليها طعامه وشرابه، ثم أيس منها واضطجع ينتظر الموت. فإذا بها قائمة عند رأسه، فأخذ بخطامها، وغلبه الفرح حتى أخطأ في عبارته. جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا المشهد أقرب صورة يفهم بها الإنسان شدة الفرح، ثم أخبر أن الله أشد فرحًا بتوبة عبده.

نثبت لله الفرح كما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم، على الوجه اللائق بجلاله، لا كفرح المخلوق المحتاج الذي يكتمل بما فقده ثم وجده. الله غني عن العالمين؛ لا تزيد توبة العبد ملكه، ولا تنقص معصيته سلطانه. ومع ذلك يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده، وهذا من جمال كماله وإحسانه.

«لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» (صحيح البخاري، 5999؛ وصحيح مسلم، 2754).

قالها النبي ﷺ لما رأى امرأةً تضم طفلها إلى صدرها بعد أن وجدته. والمقصود تقريب معنى سعة الرحمة إلى الفهم، لا تشبيه رحمة الخالق برحمة المخلوق؛ فرحمة الله أكمل وأعظم، تليق بجلاله. ومن عرف هذا لم يقنط، ولم يجعل الرحمة ذريعةً للإقامة على الذنب؛ بل أسرع إلى رب أرحم به من كل رحيم.

دع هذا الخبر يدخل القلب قبل أن يختزله في معنى قبول التوبة فحسب. الله يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده فرحًا يليق بجلاله، مع غناه الكامل عن خلقه. فالراجع لا يقف أمام باب موصد، ولا أمام قبول مجرد من المحبة؛ بل أمام رب شرع التوبة، ودعا إليها، ووعد بقبولها، وأخبر عن فرحه بها.

والمذنب حين يسمع هذا لا يزداد جرأة على الذنب؛ إن كان في قلبه حياة ازداد حياءً ومحبة. كيف يستبقي معصيةً يحب الله رجوعه منها ويفرح بتوبته؟ وكيف يؤخر إنابةً دعاه إليها ربه؟ المحبة هنا قوة على التوبة: لا يعود خوفًا من العقوبة وحدها، بل رجاءً في مغفرة الله وشوقًا إلى رضاه وقربه.

النداء يطلق القدم

لكن الآية لا تترك الرجاء شعورًا ساكنًا. يتبعها الأمر: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 54-55].

الرجاء في أول المقطع يطلق القدم، والإنذار في آخره يمنعها من التسويف. ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ ليست دعوة إلى البقاء؛ هي يد تنتشل من حفرة الماضي، ثم تشير إلى الطريق: أنيبوا، وأسلموا، واتبعوا. إذا فصل القارئ الآية الأولى عما بعدها صنع وعدًا لم يصنعه القرآن.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ». صحيح مسلم (2759).

نثبت ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من بسط اليد على الوجه اللائق بالله، من غير تكييف ولا تمثيل. ويتعاقب الليل والنهار كما تتعاقب فرص الرجوع؛ لا يقال لمسيء الليل إن موعده فات، ولا لمسيء النهار إن الباب لا يفتح حتى يتبدل زمن طويل. لكن للمهلة نهاية؛ والحديث نفسه ذكر طلوع الشمس من مغربها.

قد يكون أول الرجوع صلاة تركها العبد فعاد إليها، أو مالًا حرامًا قطع سببه، أو مظلمة بدأ بردها، أو خلوة بدّل طريقها. ليست قيمة الخطوة في أن يراها الناس كبيرة، بل في أنها تنقل صاحبها من جهة الإعراض إلى جهة الإنابة. وربه الذي يعلم السر لا يحتاج إلى خطاب متكلف؛ يريد صدقًا يظهر في الفعل.

يخرج المسرف من هذه الآيات بقلب يرجو حتى ينهض، ويخاف حتى لا يؤجل، ويحب حتى لا يستثقل الطريق. فإذا قام إلى ربه احتاج أن يعرفه كما عرف نفسه، لا كما تنتقي رغبته: غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾

مطلع لا يسمح بتجزئة الصورة

تبدأ سورة غافر بحرفين من الحروف المقطعة، ثم تنسب تنزيل الكتاب إلى الله العزيز العليم. قبل أن يسمع القارئ خبر المغفرة، يسمع أن المتكلم عزيز لا يغلب، عليم لا يخفى عليه شيء. المغفرة ليست عجزًا

عن الأخذ، وقبول التوبة ليس جهلًا بحقيقة الذنب؛ الذي يفتح الباب يعلم ما وراء الوجوه، ويملك أن يعاقب، ثم يعرف نفسه بهذا الجمع المهيب.

﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 1-3].

تتابعت الأوصاف من غير فاصل طويل: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول. لا يسمح النظم للقلب أن يأخذ وصفًا ويغلق الصفحة. من عرف الله من بعض ما عرف به نفسه فقد صنع صورة ناقصة؛ والذي يعبد الغفور وحده كما يشتهي، أو يتصور شديد العقاب دون مغفرة وفضل، لم يعرف الواحد الذي جمع القرآن أوصافه.

غافر الذنب: يستر ويعفو، ولا يعظم عليه ذنب أن يغفره. وقابل التوب: يقبل رجوع العبد إليه إذا صدق في توبته. ووصفه سبحانه بقبول التوبة يثبت أن رجوع العبد لا يضيع في جهة مجهولة، بل يرفعه إلى رب شرع التوبة ووعد بقبولها.

ثم يأتي ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾. الجلال هنا لا يطفئ جمال المغفرة، بل يحرسه من أن يصير رخاوة. الذي يعفو قادر على أن يأخذ، والذي يمهل لا يعجز، والذي يحب التوبة لا يحب الإصرار. لذلك يكون العفو أوقع في القلب؛ لأنه عفو المقتدر، لا تنازل الضعيف.

و﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ صاحب الفضل والسعة والإنعام. لم يحصر المقطع العلاقة في ذنب وعقوبة؛ فتح باب الفضل الذي لا يحيط به عمل العبد. يغفر، ويقبل، ويخوف، ويتفضل. ثم يختم: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. المعرفة كلها تعود إلى العبادة والرجوع؛ فلا غفور يطلب معه، ولا شديد عقاب يخاف استقلالًا سواه.

الجمال والجلال في تعريف واحد

من الناس من يحب صورة رحمة لا سلطان لها؛ يريد ربًا يغفر ولا يأمر، ويطمئن ولا يحاسب. ومنهم من يحمل صورة عن الجلال لا يعرف فيها العبد إلا التهديد، حتى يستوحش من التوبة نفسها. مطلع غافر يهدم الصورتين. رحمة الله رحمة الغفور ذي الطول، وجلاله جلال العزيز العليم الذي لا يظلم؛ فلا الرحمة ضعف، ولا العقاب ظلم، ولا الفضل حق يفرضه العبد على ربه.

ليس المقصود أن يقسم العبد قلبه نصفين متساويين في كل لحظة، بل أن يعرف ربه كاملًا. عند الذنب يغلبه الرجاء فيغادر القنوط، وعند داعي التسويف يستيقظ الخوف، وعند الطاعة يحب فضل ربه ولا يعجب بعمله. تتغير أحوال القلب، لكن الأسماء الحاكمة لا تتغير.

وحين يقبل الله توبة عبده لا يصبح الماضي هوية أبدية. قد تبقى آثار يحتاج إلى إصلاحها، وقد تلزمه حقوق يجب ردها، لكن باب الصلة بالله لا يبقى مغلقًا. يستأنف التائب السير إلى ربه برجاء وخوف ومحبة، ولا يعبد ذنبه باستحضاره دائمًا، ولا ينساه حتى يعود إليه.

حب لا يزيل الهيبة

المحبة الصحيحة لله لا تشترط عليه أن يدبر الحياة على الصورة التي ترضي الهوى. يحب المؤمن ربه لكماله، ويحب مغفرته وفضله، ويعظم حكمته وعدله، ويهابه لشدة عقابه. فالجلال الإلهي ليس شيئًا يتحمله العبد إلى جانب المحبة؛ بل كمال الله بجلاله وجماله هو أصل المحبة. القلب السليم يحب الرب كما عرّف نفسه، لا صورةً تصنعها رغباته المتقلبة.

ومن عرف هذا لم يفر من الله إذا سمع الوعيد، بل فر إليه. يخاف عقابه فيستغفره، ويرى فضله فيحمده، ويعرف المصير إليه فيصحح وجهته. ما أضيق العبادة حين تختزل في تجنب العقوبة، وما أكملها حين يجتمع فيها حب الغفور، ورجاء قابل التوب، وهيبة شديد العقاب، وافتقار الفقير إلى ذي الطول.

وهنا يبرز سؤال أدق: هل تظهر الرحمة حين يرفع الحكم فقط، أم تكون في الحكم نفسه؟ سورة النساء تجيب داخل موضع تضيق به النفوس أحيانًا: الله يريد أن يبين ويهدي ويتوب ويخفف.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾

حين يضيق الصدر بالحكم

قد يتعلق قلب إنسان بعلاقة لا تحل له، ويجد في الانفصال ألمًا حقيقيًا، ثم يسمع الحكم الشرعي فيراه أول الأمر بابًا أغلق في وجه حياته. وقد تشتهي النفس طريقًا قريبًا لا ترى في لحظتها إلا لذته، بينما يأتي الوحي بحد وفصل وعفة وانتظار. في هذا الموضع يسهل أن يسمي المرء رغبته رحمة، ويسمي ما يحميه منها تضييقًا.

آيات النساء لا تنكر ضعف الإنسان، ولا تخاطبه كأنه لا يعرف رغبة ولا عناء. جاءت في سياق أحكام النكاح والمحرمات وتنظيم طريق الشهوة، ثم كشفت ما وراء الحكم من إرادة الله بعباده:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 26-28].

تتكرر الإرادة، لكن الجهات مختلفة. الله يريد أن يبين، ويهدي، ويتوب، ويخفف. والذين يتبعون الشهوات يريدون ميلًا عظيمًا. ليست المسألة حكمًا يقف في جهة، وحياة الإنسان في جهة أخرى؛ إنها إرادتان تتنازعان وجهته: إرادة العليم الحكيم التي تعرف ضعفه وعاقبته، وإرادة الشهوة التي ترى اللحظة وتجره إلى ميل لا يرى نهايته.

الذي حد هو الذي رحم

يبدأ المقطع بالبيان. من الرحمة ألا يترك الإنسان في ضباب لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الطريق من الحفرة. ثم الهداية: لا يبين له المعلومة فقط، بل يدله على سنن مستقيمة سلكها أهل الإيمان قبله. ثم التوبة: يشرع له ما يعود به إذا زل. ثم التخفيف: لا يكلفه على غير علم بضعفه، بل يقول بعد الأحكام: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾.

ليس الضعف هنا حجة ليصير الهوى مشرعًا. الذي خلق الإنسان ويعلم ضعفه هو الذي وضع الحد وفتح الحلال وشرع التوبة. لو كانت الرحمة أن يُترك لكل رغبة، لما قال في الآية الوسطى إن متبعي الشهوات يريدون الميل العظيم. بعض الأبواب تبدو سهلة لأنها منحدرة؛ والرحمة قد تكون في حاجز يمنع سقوطًا لا يراه القلب في أوله.

حين يسمع صاحب العلاقة المحرمة الحكم، قد لا يزول ألمه فورًا. الرحمة لا تعني أن كل طاعة بلا كلفة. لكنها تمنحه معنى يحمل به الكلفة: الذي أمره لم يجهل تعلقه، والذي منعه لم يرد به ظلمًا، والذي دعاه إلى العفة فتح له التوبة والحلال والدعاء والصبر. وما يتركه العبد لله لا يضيع أجره عنده، وإن لم يعرف في الدنيا كل ما عوضه به.

وهنا يظهر كمال التشريع في الرحمة والجلال معًا. هو صادر عن علم الله بضعف عبده وحاجته، وهو أمر رب لا تتحول رغبة الإنسان إلى شريك في حكمه. فيتلقى المؤمن الحكم عبوديةً وثقةً ومحبة، لا خضوعًا خارجيًا وقلبًا يتهم ربه، ويطلب الفهم فيما أشكل عليه من غير أن يجعل هواه ميزان الحق.

إرادة شرعية تفتح الطريق

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا المقام يدل على الإرادة الشرعية: شرع الله لعباده طريق التوبة، وأمرهم بها، ودعاهم إليها، وهو يحب التوابين. ولا يلزم من ذلك أن تقع التوبة كونًا من كل فرد؛ فقد يريد الله من العبد شرعًا ما لا يختاره العبد، ولا يقع في الكون إلا ما شاءه الله كونًا.

هذا التحرير لا يبرد الآية؛ بل يحفظ معناها. العبد لا يقول: ما دام الله يريد التوبة فلا بد أن أتوب يومًا. يسمع الدعوة ويعرف أنه مخاطب بها الآن، وأن عليه مشيئة وقدرة واقعتين تحت مشيئة الله، فيختار طريق الرجوع ويسأل التوفيق. جمال الإرادة الشرعية أنها تكشف ما يحبه الله لعبده، وجلال الربوبية أنها لا تترك العبد مستقلًا عن توفيقه.

يسر يبقيك في الطريق

ويكرر القرآن معنى التخفيف في مواضع التكليف: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: 6]. اليسر لا يلغي الصيام، والطهارة لا تلغي الصلاة؛ إنما يؤدي العبد ما شرع الله، ويأخذ برخصته حيث شرعها. فلا يجعل الغلو عبادة، ولا يسمي إسقاط الفرائض تيسيرًا. المقياس هو ما شرعه الرحيم، لا ما استراح إليه الإنسان لحظته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا». صحيح البخاري (39). اليسر النبوي يمنع الغلو الذي يرهق النفس حتى تنقطع، كما يمنع الهوى من تسمية التفريط يسرًا. التسديد قصد الصواب، والمقاربة عمل بما يقدر عليه العبد إذا عجز عن الكمال، والبشارة تحفظ قلبه من اليأس. إنه يسر يبقيه في الطريق، لا يخرجه من العبودية.

ولا يجعل المؤمن شعوره العاجل ميزان رحمة الله. قد تكون نجاته في حد منعه مما يريد، كما تكون في حلال فتحه له. ولا يفتعل حكمة خاصة لكل أمر ليطمئن؛ يكفيه ما صرح به الوحي من العلم والحكمة والهداية والتوبة والتخفيف، ثم يتأمل ما ظهر من المصالح بأدب ولا يجزم بما لم يقم عليه دليل.

هكذا لا يقف أمام الحكم كأنه خصم لحياته. يسمع فيه بيان العليم، وهداية الحكيم، ودعوة الرحيم إلى التوبة، وتخفيف من خلق الإنسان ضعيفًا. يتلقى الشرع عبودية وثقة ومحبة؛ لا لأن كل مشقة زالت، بل لأنه عرف من الذي شرع.

تحت دعاء الملائكة

في السورة التي عرفت الله بأنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، يظهر حملة العرش ومن حوله يدعون للمؤمنين. لا يطلبون رحمة بلا علم، ولا مغفرة بلا توبة، ولا نجاة بلا اتباع سبيل؛ يجمع دعاؤهم هذه المعاني: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7].

رحمة واسعة، وعلم محيط، ومغفرة لتائب، وسبيل متبع، وعذاب يستعاذ منه. لا يحتاج القلب بعد هذا الجمع إلى أن يختار بين الرجاء والهيبة، ولا بين الرحمة والشرع. يدخل الباب كما فتحه الله: يصدق الخبر، ويعود من الإسراف، ويعرف شدة العقاب وفضل ربه، ثم يتلقى أمره على أنه طريق التوبة والتخفيف.

ويرفع العبد رأسه من سجوده وقد تبدلت جهة نظره. الذي علم سره فتح له طريق الرجوع، والذي سمع دعاءه دعاه إلى الاستجابة، والذي علم ضعفه بيّن له وهداه ولم يتركه بلا شرع. كتب الرحمة، ونهاه عن القنوط، وأخبر أنه يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده، وشرع له ما يحفظ دينه وقلبه.

هنا تزداد المحبة والأنس؛ لا لأن العبد نسي جلال ربه، بل لأنه عرف الرحمة صفةً لرب العرش، واسع الرحمة والعلم، الذي يغفر ويقي ويهدي. ومن عرف هذا الكمال أحب ربه ولم يبتعد عنه، ومن عرف جلاله لم يتجرأ عليه؛ أحب فاقترب بالطاعة، وعظم فاستقام على الأمر.

والذي رحم ليس عاجزًا، والذي فتح الباب لا يغلبه أحد: رحمته رحمة العزيز الحكيم، ومغفرته مغفرة من يفعل ما يريد.

والتوبة في ذروتها ليست فرارًا من العقوبة وحدها؛ هي رجوع المحب إلى من أساء في حقه، واستحياء العبد من رب لم تنقطع عنه نعمه وهو يعصيه. كلما عرف سعة الرحمة ازداد رجاءً، وكلما عرف كمال المنعم اشتد ندمه على البعد. لذلك لا يكتفي التائب بأن تسقط عنه المؤاخذة؛ يطلب أن يعود قلبه قريبًا بالطاعة، وأن يستبدل وحشة الذنب بأُنس المناجاة، وأن يكون بعد المغفرة أحب إلى الله وأصدق عبودية مما كان قبل الزلة.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾

يخرج العبد من باب الرحمة مطمئنًا، ثم يأتي الخبر الذي لم يرده، أو يطول الدعاء بلا جواب يراه، أو يمتد الباطل حتى يبدو كأنه استقر. في هذه الساعة لا تكفي عبارة عامة عن الحكمة؛ يحتاج القلب أن

يعرف أن الرحمن الرحيم هو العزيز الحكيم: لا يُغلب، ولا يفعل عبثًا. وقد يخفى على العبد وجه الحكمة، ولا يلزم من خفائها أن الفعل خلا منها، كما لا يبيح له إيمانه بالقدر أن يترك الدعاء أو المدافعة المشروعة أو محاسبة نفسه. فتجتمع في قلبه الثقة بقدرة لا تعجز، وحكمة لا تختل، وعبودية تعمل ولا تشترط على ربها أن يكشف لها كل سر.

وليست العزة معنى القوة وحده. تجتمع مع الحكمة والمشيئة والحكم والهداية والعدل في حقيقة واحدة: رب لا تُغلب إرادته، ولا تنفصل مشيئته عن علمه وحكمته، ولا يجور في حكمه؛ الهداية بيده فضلًا، والظلم منفي عنه كمالًا. وحين تجتمع هذه المعاني لا يعود التسليم رضوخ عاجز لقوة غالبة، بل يصير عبوديةً وثقةً ومحبةً لرب كامل الجلال والإحسان؛ يُهاب ويُطاع، ويُلجأ إليه ويُأنس بذكره.

قد يبكي الإنسان لما فقد، ويجتهد فيما أُمر به، ويفتش عن موضع تقصيره؛ وذلك كله من صدق العبودية. لكن الألم يتجاوز حدّه حين يتحول إلى محاكمة للرب، أو يصبح مقدار فهم الإنسان ميزانًا للحكمة. والقرآن لا يطالبه بإطفاء عقله أو شعوره، بل بوضعهما في مقامهما: عقل يتدبر ما بلغه، وقلب يفتقر، وعبد يعمل تحت سلطان رب لا يعجزه شيء، ولا يضع شيئًا في غير موضعه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

حين تفسد القوة في يد المخلوق

أكثر ما عرفه الإنسان من القوة قوة محتاجة: يملك صاحبها أداة فيخاف زوالها، وينفذ أمره فيحتاج إلى من يحرسه، وقد يبطش ليستر ضعفه. ويعرف حكمة بشرية ترى الصواب ثم تعجز عن إقامته، أو تصيب في موضع وتخطئ في آخر. فإذا حمل هذه الخبرة الناقصة إلى ربه، تخيل عزة تشبه طغيان البشر، أو حكمة جميلة لا تملك النفاذ.

العزيز له العزة كلها؛ لا يُغلب ولا يُمانع، ولا يخرج شيء عن ملكه. والحكيم له الحكمة الكاملة في خلقه وأمره وجزائه، يضع الأشياء مواضعها، ويحكم فلا يعتري حكمه جهل ولا هوى ولا عاقبة لم يحسبها. نثبت الاسمين وما دلا عليه من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلاله، من غير تمثيل بعزة المخلوقين ولا تعطيل للحكمة حين تخفى علينا بعض وجوهها.

وحين يجتمع الاسمان، لا تبقى القوة في القلب معنى مخيفًا منفردًا، ولا تبقى الحكمة كلمة نضعها على المجهول. عزة الله لا تحتاج إلى ظلم أحد، وحكمته لا يعجزها تنفيذ ما اقتضته. هنا يلتقي جلال من لا يُغلب بكمال حكمة من لا يعبث؛ فيخشع القلب ويطمئن، ويطيع ربه قبل أن تنكشف له جميع وجوه التدبير.

في الموضع الذي لم تختره لنفسك

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6]. قبل أن يملك الإنسان اسمًا أو رأيًا أو قدرة، جرى عليه فعل ربه: صوره كيف شاء. ثم لم تترك المشيئة في نهاية الآية منفردة، بل ختمت بالعزة والحكمة. الذي خلقك وصورك قادر لا يعجز، حكيم لا يخلق عبثًا.

هذا موضع قريب من وجع الإنسان، لأن كثيرًا من الناس يحمل في جسده شيئًا لم يختره: صورة، أو نقصًا، أو مرضًا، أو استعدادًا يختلف به عن غيره. القرآن لا يطلب منه أن يسمي الألم نعمة بعينها بغير دليل، ولا يمنعه من التداوي والإصلاح، لكنه ينزع من قلبه اعتقاد المصادفة والاستقلال. ما عجزت عن فهمه لم يخرج من علم العزيز الحكيم.

ولك أن تسأل العافية، وتحزن لما فات، وتدفع الضرر بما أباح الله. لكن المقارنة التي تبدأ طلبًا للفهم قد تنتهي خصومة خفية: لماذا أعطي غيري وحُرمت؟ هنا يعيدك الاسمان إلى مقام العبودية. أنت لا ترى إلا جزءًا من الطريق، وربك يعلم ما كان وما يكون، وخفاء وجه الحكمة لا يقدح في كمالها.

رسالة تصدر عن عزة وحكمة

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]. لم يختم دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام باسمين بعيدين عن مضمونه؛ فبعث الرسول، وإنزال الكتاب، وتعليم الأمة وتزكيتها من فعل العزيز الذي ينفذ أمره، الحكيم الذي يعلم ما يُصلِحُ عباده.

لهذا لا يتلقى المؤمن الوحي بوصفه اقتراحًا هشًا أمام أهواء الأزمنة. الذي تكلم به غني عن طاعتنا، لا تزداد عزته بإقبالنا ولا تنقص بإعراضنا، ونحن المحتاجون إلى حكمته. وقد يشكل علينا حكم فنطلب بيانه، وقد نخطئ في فهم دليل فنرجع إلى أهله، لكن أصل التلقي لا ينقلب: لسنا نكمل للشرع ما فاته، ولا نخبر العليم بما استجد في خلقه.

والنصر من عنده

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126]. لم يعف المؤمنين من إعداد ولا صبر ولا طاعة، لكنه نزع من السبب دعوى الاستقلال. يجمع العبد ما يستطيع، ويحسن التخطيط، ويعرف موازين القوة، ثم لا يجعل كثرة العدد خالقة للنصر، ولا يجعل تأخره برهان عجز.

ربنا عزيز لا يُغلب، حكيم لا يعبث. فتستقيم الهيبة والثقة معًا؛ يهابه القلب فلا يجرؤ على معصيته، ويثق به فلا يفر منه حين تضيق الأسباب. ومن عاش مع الاسمين لم يعد محتاجًا إلى أن يرى الصورة كاملة قبل أن يطيع. يستخير، ويشاور، ويبذل وسعه، ثم يمضي بقلب أهدأ؛ لا لأنه ضمن النتيجة التي أحبها، بل لأنه عرف من بيده النتيجة.

المشيئة النافذة ليست منفصلة عن الحكمة، والحكم ليس منفصلًا عن العدل، والهداية ليست حقًا يستوجبه العبد، والقدر لا يقع في ملك مهمل. ثم تقف العين أمام نار الأخدود.

﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾

عند حافة الأخدود

في سورة البروج يجلس الطغاة على حافة الأخدود، وقد أحاطوا بالمؤمنين وأوقدوا النار وقعدوا عليها شهودًا. كانت النار في أيديهم، والأجساد أمامهم، والسطوة ظاهرة حتى كأن إرادتهم بلغت آخر ما تريد. لم يكن المؤمنون في ظاهر المشهد يملكون قوة ترد البطش، ولم تنشق الأرض لتبتلع المعتدين قبل أن تمس النار ضحاياهم.

المشهد يضغط على سؤال يسكن القلب كلما طال البلاء: أين فعل الله حين يقع ما نكره؟ ولماذا لم تأت النجاة في الصورة التي نعرفها؟ لو وقف القارئ عند النار وحدها، لبدت القصة محسومة للطغاة. لكن السورة لا تسلم القصة لسطحها؛ ترفع العين من الحفرة إلى رب لا تحجبه النار ولا تخدعه لحظة الغلبة.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 12-16].

أصحاب الأخدود ملكوا الوقود والحفرة واللحظة، ولم يملكوا حكم الله فيهم، ولا منزلة المؤمنين عنده، ولا الإعادة بعد الموت. فعلوا ما اختاروا داخل ملكه، وسيجدون ما عملوا؛ أما ربك فيبدأ ويعيد، ويبطش ويغفر، وله العرش والمجد، ولا يرد أحد ما أراد.

وجاءت ﴿الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ قبل ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وجاء العرش والمجد، وسبق البطش والبدء والإعادة. الذي تنفذ إرادته ليس قوة مجهولة منفصلة عن سائر صفات الكمال؛ هو الغفور الودود، ذو العرش المجيد. هنا يرى القلب جمال الود والمغفرة في أوج الجلال، ويرى جلال البطش والعرش من غير أن يفقد الأنس بربه.

حين لا تكون النجاة في الصورة التي اخترتها

لم تمنع المشيئة النافذة أن تمس النار أجساد المؤمنين، لأنها لم تكن وعدًا بأن تأتي النجاة دائمًا في الصورة التي يختارها العبد. لكنها منعت أن تكون النار آخر القصة، أو أن يكون أصحابها هم المنتصرين حقًا. الذين قعدوا عليها شهودًا لم يروا إلا ما صنعت أيديهم، أما القرآن فأرانا ما وراء اللهب: بطشًا لم يقع بعد، وإعادة لا يملكون ردها، ومغفرة وودًا وعرشًا ومجدًا.

ليست كل نجاة بقاء الجسد، ولا كل هزيمة موت المظلوم. قد ينجو المؤمن بدينه حين يحترق جسده، ويهلك الطاغية وهو جالس في مقعد القوة. هذه المعرفة لا تجعل الألم وهمًا، ولا تطلب من المبتلى أن يتبلد؛ لكنها تمنعه من تسليم معنى النصر والهزيمة إلى اللحظة التي تراها العين.

هنا تبلغ حرارة المشهد ذروتها: قلب يرى النار ولا ينكرها، ويرى فوقها العرش فلا يضيع. يحب الغفور الودود، ويهاب شديد البطش، ويثق بفعال لما يريد. فإذا ضاقت به واقعة لم يفهمها، لم يقل إن ربه غاب؛ قال إن القصة لم تنته.

إرادة حقيقية للعبد تحت مشيئة ربه

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 28-29]. أثبت للعبد مشيئة حقيقية بها يريد ويختار ويعمل، ثم ردها إلى مشيئة رب العالمين. فلا يسلب العبد اختياره حتى يحتج بالقدر، ولا تستقل إرادته حتى يخرج بها عن ربوبية الله.

الله خالق العبد وقدرته ومشيئته، والعبد فاعل حقيقة مسؤول عن فعله. وما شاء الله كونًا كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ومع ذلك أمر ونهى، وأرسل الرسل، وأقام الحجة، وجعل للإنسان قدرة يقع بها اختياره. هذا هو الطريق الذي يحفظ كمال الرب ومسؤولية العبد معًا، من غير جبر يلغي التكليف ولا استقلال يجعل في الملك ما لا يريده الله.

لذلك لا يمحو قول العاصي: لو شاء الله ما عصيت، تَبِعَتَهُ؛ فقد اختار الفعل وأقدم عليه، وأمره الله بخلافه وفتح له باب التوبة. ولا يملك المطيع أن يعجب؛ لأن استقامته لم تنبت من ذاته مستقلة عن توفيق ربه. بين التوبة والشكر يعيش المؤمن: يتوب لأنه فعل، ويحمد الله لأنه لم يُكل إلى نفسه.

قلب بين إصبعين

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثم قال: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». صحيح مسلم (2654).

نثبت لله ما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم من الأصابع على الوجه اللائق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل. والحديث لا يحول الإنسان إلى قلب مسلوب المسؤولية؛ بل يكشف شدة فقره إلى ربه. النبي المؤيد بالوحي، أثبت الخلق قلبًا وأعرفهم بربه، كان يدعو بتصريف القلب إلى الطاعة؛ فكيف يأمن عبد على نفسه لأنه استقام زمنًا؟

هذا الدعاء يبدل هيئة العبادة. لا تدخل الصلاة متكئًا على قلبك، ولا تخرج من مجلس علم كأنك ضمنت حسن الخاتمة. سل الذي يصرف القلوب أن يصرف قلبك إلى طاعته، وخذ بأسباب الثبات، وَخَفْ من ذنب يغير وجهتك، ولا تيأس من قلب ضل ما دام باب الدعاء والتوبة مفتوحًا.

تسليم لا يطفئ العمل

معرفة ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا تصنع متفرجًا. من مشيئته أن ربط النتائج بأسباب، وأمر بالعدل والنصرة والتداوي والتوبة. تعمل ولا تعبد عملك، وتدعو ولا تفرض على الإجابة صورة واحدة، وتخطط ولا تجعل خطتك قدرًا واجب النفاذ. فإذا انكسر المراد، راجعت تقصيرك من غير أن تجعل حزنك محكمة على ربك.

التسليم لا يعني ألا تتألم. قد يبكي المؤمن على ما فقد، وقد يطول حزنه، وقد يعيد المحاولة مرات؛ لكن قلبه لا يرفع إرادته إلى مقام الإرادة النافذة. يقول بعمله ودعائه: هذا ما أحب، وهذا ما أستطيع، وأنت يا رب تفعل ما تريد بعلمك وحكمتك. وحين يستقر هذا، يخف حمل السيطرة الذي أنهك النفس؛ فهي مكلفة بالعبودية لا بامتلاك الغد.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

حقيقة أعلى من جدران السجن

كان يوسف عليه السلام عبدًا مملوكًا في ظاهر الأمر، مسجونًا لا يملك أبواب السجن ولا قرار الملك. ومع ذلك تكلم من داخل القيد بحقيقة أعلى من الحراس والجدران والسلطان. لم يبدأ كلامه بمنازعة بشرية على الحكم، بل سأل صاحبيه: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39].

ثم نقض الأسماء التي لا سلطان لها، ورد الحكم إلى الله وربطه بعبادته: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 40].

الحكم له لأنه الواحد القهار، ولأن الأمر والعبادة لا ينفصلان. فلا يختزل النص في شعار سياسي، ولا يفرغ من حق الله في أن يأمر وينهى ويحلل ويحرم. يدخل في حكمه قضاؤه الكوني، وخبره الصادق، وفصله بين عباده وجزاؤه، وتشريعه؛ والمقصود هنا خاصةً الحكم الشرعي وتلقيه.

الله أعلم بخلقه، وأحكم الحاكمين، ولا يظلم أحدًا، وله وحده حق التشريع استقلالًا. وما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم حق واجب الاتباع؛ فهو مبلغ عن ربه ومبين لكتابه، وسنته وحي وحجة، وطاعته من طاعة الله.

حين تبقى للنفس رغبة أخرى

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

لا يظهر التسليم كاملًا حين يوافق الحكم رغبة العبد؛ يظهر حين يثبت الأمر وتبقى للنفس محبة في الجهة الأخرى. لا تلغي الآية فهم الدليل، ولا السؤال عما أشكل، ولا الاجتهاد حيث يسوغ؛ لكنها تحسم موضع القلب بعد ثبوت الحكم.

قد يقول الإنسان: أعرف النص، لكنني لا أراه مناسبًا. فإن كان يطلب صحة الدلالة أو فقه التنزيل بأدوات العلم، فهذا بحث مشروع؛ وإن جعل ذوقه الحاضر حاكمًا على الوحي، فقد خرج من طلب الفهم إلى منازعة المرجعية. الذي حكم لا يجهل ما عرفناه من أحوال البشر، ولم يغب عنه زماننا، ولا يحتاج أن نتم له صورة الإنسان.

ورب حكم يشق أول الأمر لأن النفس ألفت غيره، ثم ينكشف لها من آثاره ما لم تكن تراه. وقد يبقى وجه الحكمة خافيًا، فيظل أصل العبودية قائمًا: سمعنا وأطعنا، لا لأننا فهمنا كل شيء، بل لأننا عرفنا من أمر. وهنا يظهر الجمال داخل الجلال: الحكم حكم القهار، لكنه صادر عن العليم الحكيم الرحمن الرحيم.

تعظيم الحكم يمنع القول على الله بغير علم

حق الحكم لله لا يمنح الجاهل حق النطق باسمه. من تعظيم شرعه أن يطلب الحكم من دليله، ويرجع في الفهم إلى أهل العلم، ويفرق بين نص ثابت وفهم بشري، وبين حكم على الفعل وتنزيله على شخص بعينه.

ومسائل التكفير والتفسيق والتبديع والحكم على المعين لها شروط وموانع ومظان علم، وليست ميدان حماسة عابرة.

وبهذين الحدين يستقيم التلقي: لا يُرد حكم الله لأن الهوى لم يألفه، ولا يُنسب إلى الله حكم بغير علم. وأما تفصيل مراتب الحكم بغير ما أنزل الله والأنظمة السياسية وأحكام الأعيان فله بحثه المتخصص؛ والمقصود هنا أن يستقر في القلب من هو الحاكم، وكيف يقف العبد إذا ثبت أمره.

ما ليس منه فهو رد

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». صحيح البخاري (2697)، وصحيح مسلم (1718). الحديث يحرس مصدر الدين: حسن القصد لا يحول ما لم يأذن به الله ورسوله إلى قربة، وكثرة الأتباع لا تمنح الباطل شرعية. ومن عرف أن الحكم لله لم يتقرب إليه بطريق لم يشرعه، ولم يرد سنة ثابتة لأن نفسه لم تألفها. يتعلم ويسأل ويجتهد حيث يسوغ الاجتهاد، لكنه لا يجعل نفسه شريكًا في إنشاء الدين.

ومعرفة المشرع تمنح التسليم روحه: الذي أمر هو الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم. رحمته لا تنزع سلطانه، وسلطانه لا ينزع رحمته؛ فلا تُتخذ الرحمة ذريعة لتعطيل أمره، ولا يُعرض السلطان منفصلًا عن عدله وحكمته. وعند كل تعارض صادق يتغير السؤال؛ بدل أن يقول المرء: ماذا أريد من النص؟ يسأل: ماذا يريد الله مني؟ ثم يفتش بصدق: أيُّ رغبة في نفسي تزاحم أمره الآن؟

والعبد لا يخرج من هوى إلى هدى بقوة ذهنه وحدها؛ لذلك يأتي بعد الحكم باب لا يملكه عالم ولا داعية ولا محب: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

عند فراش من تحب

في لحظة الاحتضار تضيق الدنيا إلى كلمات قليلة. كان أبو طالب قد حمى النبي صلى الله عليه وسلم ونصره بقرابته، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنده يدعوه إلى كلمة التوحيد قبل أن يفارق الحياة. بذل أعظم الخلق بيانًا وحرصًا ورحمة، وكان قرب المحتضر منه ومحبته له مما لا يبلغه داعية مع مدعو؛ ثم مضى أبو طالب ولم يقلها.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]. وثبت سبب نزولها في حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه، صحيح البخاري (4772)، وصحيح مسلم (24).

لا يمر المؤمن على المشهد ببرود. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبواب البيان مفتوحة، والمحبة صادقة، والوقت يضيق، ومع ذلك لا يملك خلق الإيمان في قلب أحد. القرب لا يورث الهداية، والمكانة لا تشتريها، ولا قوة الحب تجعل الداعية ربًا للقلب الذي بين يديه. إنها عطية الله، يفتح بها من يشاء بعلمه وحكمته.

وللنبي صلى الله عليه وسلم هداية الدلالة والبيان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]. أما هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب فلله وحده. إذا اختلط النوعان تكبر الداعية حين يرى الاستجابة من صنعه، أو يترك البلاغ محتجًا بأن الهداية بيد الله. والقرآن يجمع: بلغ واصبر وأحسن البيان، ثم اعرف أنك لا تملك القلوب.

الهداية فضل لا امتياز للنفس

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ... فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]. الكتاب نزل بالحق، والرسل بينوا، ثم بقي افتقار القلب إلى هداية الله. وجود الدليل لا يجعل كل من رآه مستجيبًا، وكثرة المختلفين لا تجعل الحق مستحيلًا. يهدي الله من يشاء بفضله، ولا يجب عليه لأحد حق لم يوجبه على نفسه.

ومن سننه أن من أعرض بعد البيان واتبع هواه عاقبه بزيادة الزيغ والخذلان بعدله وحكمته: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5]. فالخذلان الجزائي لا يقع ظلمًا ولا ابتداءً بلا سبب من العبد، يقع بعد زيغ وإعراض، والله لا يظلم أحدًا. ومع ذلك تبقى الهداية في أصلها فضلًا محضًا، لا أجرًا استحقه الذكي أو صاحب البيئة الصالحة.

مَن هُدِيَ لا يتعامل مع الهداية كوسام نفسي. يعرف أنه كان قادرًا على الضلال لولا فضل الله، وأن علمه وبيئته وذكاءه لا تلزم الله أن يفتح له. فيتواضع، ويرحم الحائر، ويدعوه من غير مداهنة ولا احتقار، ويخاف أن ينقلب قلبه إن أعرض أو اغتر.

وهنا يجتمع الجمال والجلال أيضًا. جمال الهداية أنها قرب ونور واصطفاء ورحمة، وجلالها أنها بيد الله لا يملكها أحد سواه. فيحب العبد الهادي لما منحه، ويهابه فلا يأمن على قلبه، ويأنس به لأنه لا يطلب الطريق من فراغ بل من رب قال له: استهدني.

فاستهدوني أهدكم

في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه، قال الله تعالى: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**». صحيح مسلم (2577). يرد الخطاب البشر كلهم إلى فقر واحد: العالم في علمه، والعابد في قصده، وصاحب القرار في اختياره، والثابت اليوم في غده. ولهذا تكرر في كل ركعة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: 6].

ليست الهداية شهادة قديمة يحتفظ بها العبد، بل إمدادًا لا يستغني عنه. يأخذ بسبب العلم، ويجاهد هواه، ويسأل أهل الذكر، ويبتعد عن الفتنة؛ لكن هذه الأسباب لا تتحول في قلبه إلى هاد مستقل. يفعل ما أمر، وقلبه يقول: يا رب، لا تكلني إلى نفسي.

ومن أشد مواضع الفقر أن تحمل هم قلب تحبه. تبين له، وتدعو، وتكون قدوة، وتصبر على طول الطريق؛ ولا تيأس منه ما دام حيًا، ولا تتصرف كأنك مالك هدايته. واجبك الصدق والرحمة، أما الهداية فبيد الله عز وجل وحده.

وحين تخاف على قلبك أو قلب من تحب، لا تقف عند تحليل الأسباب وحدها. ارفع حاجتك إلى من قال: «**فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**». قد يعجز بيانك، وتضيق عبارتك، وتبقى لك عبودية لا يعجز عنها الضعيف: أن تطرق باب الهادي بقلب صادق.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

حين يرى الإنسان جزءًا ويحاكم به القصة كلها

قد يقف العبد أمام طفل يتألم، أو مظلوم مات قبل أن يرى حقه، أو تفاوت لا يفهم سببه، فينهض في داخله سؤال العدل. السؤال الذي يطلب الفهم لا يذم، وقد يكون طريقًا إلى علم أرسخ؛ لكن الخطر أن يتحول جهل الإنسان ببعض الحكمة إلى إحاطة ينسب بها الظلم إلى ربه. يرى مشهدًا قصيرًا، ثم يحاكم به الدنيا والآخرة وما خفي عنه.

﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت: 46].

قبل نفي الظلم أثبتت الآية مسؤولية الإنسان؛ الصالح يعود نفعه إليه، والإساءة عليه. والله غني عن طاعة العباد، لا ينتفع بها، ولا تضره معصيتهم. ثم جاء النفي باسم الرب: الذي خلق وربَّى ورزق وبيَّن لا يظلمهم في حكمه ولا جزائه.

والمراد بقوله ﴿بِظَلَّامٍ﴾ نفي الظلم عنه سبحانه مطلقًا؛ فلا يظلم عباده قليلًا ولا كثيرًا؛ إذ صيغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾ لا تترك أدنى احتمالٍ لظلمٍ يسير؛ فالظلم كله نقص، والله منزَّه عن كل نقص. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: 40]. لا ينقص حسنة، ولا يحمل نفسًا ذنب غيرها، ولا يؤاخذ بغير حجة. هذا من جمال الربوبية كما هو من جلالها: جلال قضاء لا يفلت منه شيء، وجمال أمان لا يضيع عنده حق.

حرمت الظلم على نفسي

في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا». صحيح مسلم (2577). لم يحرمه عليه أحد؛ هو الذي حرمه على نفسه كمالًا وفضلًا، وأخبر عباده ليعرفوه. ثم لم يترك الحديث المعرفة معلقة في السماء: «فَلَا تَظَالَمُوا». من أقبح التناقض أن يطالب العبد ربه بتفسير كل ألم، ثم لا يفسر لنفسه ظلمًا واضحًا يوقعه في بيته أو تجارته أو حكمه.

الإيمان بأن الله لا يظلم يجب أن يثقل اليد قبل أن تبطش، واللسان قبل أن يفتري، وصاحب السلطة قبل أن يستضعف من لا يملك دفاعًا. من أحب عدل الله أحب أن يقيم العدل، ومن هاب حسابه خاف حقًا صغيرًا ظن أن الناس نسوه.

حتى الشاة الجلحاء

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ». صحيح مسلم (2582). وإذا كانت البهائم يقتص لبعضها من بعض إظهارًا لكمال العدل، فكيف تضيع دمعة مظلوم، أو كلمة قذف، أو مال أكل، أو حق أخفته القوة في الدنيا؟ هذا المشهد يرد الطمأنينة إلى من مات قبل أن يرى إنصافه، ويرد الرهبة إلى من ظن أن انقطاع الشهود أسقط الحق.

قد تتعطل محاكم الدنيا، ويغيب دليل، ويعجز المظلوم؛ لكن الحقوق لا تذوب في ملك الله. وليس معنى ذلك ترك المطالبة والإنصاف في الدنيا؛ بل نقيم ما استطعنا من العدل، ونعرف أن ما عجزت عنه أيدينا لا يعجز عنه أحكم الحاكمين.

لا تخترع للقدر تفسيرًا

إذا لم يفهم العبد حكمة مصيبة بعينها، لم يلزمه أن ينسج لها قصة مريحة. يكفيه ما ثبت: الله حكيم لا يظلم، والدنيا دار ابتلاء لا دار استيفاء كامل، والآخرة موضع الجزاء التام. قد يكون الألم من ظلم بشر يجب مقاومته، وقد يكون ابتلاء، وقد تخفى علينا جهات الحكمة؛ ولا يجوز أن ننسب إلى الله مقصدًا خاصًا بغير علم.

المعرفة الصحيحة لا تسكت العقل، لكنها تمنعه أن يتكلم فيما لا يعلم. تقول للعبد: ابحث عن السبب الذي كُلِّفت بإصلاحه، واترك ما لم تُكلَّف باقتحامه، ولا تجعل جهلك ببعض الحكمة تهمة في حق الرب.

وهذه المعرفة لا تطلب من الموجوع أن يمثل الرضا وهو يتألم، ولا من المظلوم أن يصالح الظالم على حقه. تفتح له باب الصبر والدعاء والعمل، وتمنعه أن يقاوم ظلمًا بظلم آخر. قضية عادلة لا تبيح كذبًا ولا عدوانًا، ومن عرف أن الله حرم الظلم لم يجعل نصرة المظلوم ذريعة ليصير ظالمًا جديدًا.

عند آخر ما تراه العين

قد تنتهي حياة المظلوم ولا يرى حقه، ويغادر الظالم الدنيا في صورة المنتصر، فتبدو القصة لمن حبسها في الدنيا ناقصة. لكنها لا تسقط عند حافة القبر. الذي حكم لا يظلم، والذي يفعل ما يريد لم يترك الملك لغيره، والذي يهدي القلوب سيجمع أصحابها بين يديه.

حين يهدأ الليل ويعود العبد إلى صلاته، لا يحمل معه جوابًا تفصيليًا عن كل ما وقع. يحمل ما هو أرسخ: ربًا عزيزًا لا يغلب، حكيمًا لا يعبث، فعالًا لما يريد، له الحكم، يهدي من يشاء، ولا يظلم أحدًا. فيسأل الهداية، ويستغفر من اعتراضه، ويرد ما استطاع من المظالم، ثم يسلم ما غاب عنه لمن لا يغيب عنه شيء.

وإذا بقي حق لم يستوف، أو قدر لم يفهم، لم يقل المؤمن إن القصة انتهت. يرفع بصره إلى ما وراء اللحظة: الملك له، والحكم له، والعباد إليه راجعون. هناك لا تختلط الأعمال، ولا تضيع الحقوق، ولا يبقى للمخلوق من سلطان، وإنما يبقى له ما قدمت يداه.

هذه المعرفة لا تترك القلب بين جلال يطرده وجمال يرخيه. يرى عزةً لا تُغلب، وحكمةً لا تعبث، وقصاصًا لا يظلم، ورحمةً لا تُتخذ ذريعةً للإصرار. فيحب ربه لكماله وإحسانه، ويهابه لعظمته، ويأنس به لأنه لا يضيع من لجأ إليه.

وفي هذا اليقين تُقرأ تقلبات الملك والقدر والتاريخ والرجوع: فالأحداث التي تنقلب أمام العين ليست بلا مالك، والمصائب ليست خارجة عن كتاب، والنهاية ليست غائبة: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، و﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والقلب المحب لا يشترط أن يفهم كل قدر حتى يثبت على محبته. قد يتألم، ويسأل، ويبكي، ويطلب كشف الضر، لكنه لا يجعل غموض الحكمة قطيعةً مع الحكيم. يعرف من ربه ما يكفيه ليثق: عزة لا يعجزها شيء، وحكمة لا يدخلها عبث، ورحمة لا تنفصل عن التقدير. ومن هنا يكون التسليم عبادة محبة أيضًا؛ يسلم لأنه عرف من يسلم له، لا لأنه فقد الإحساس أو أوقف السؤال المشروع.

لَهُ الْمُلْكُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

قد يصل خبر في لحظة فيبدل ترتيب الأيام: دولة تصعد، وسلطة تهتز، ومال ينتقل، وصحة تضعف، وحق يتأخر. يرى المؤمن هذه التحولات كلها، ثم قد يعيشها كأنها أحداث بلا مالك؛ يخاف يد المخلوق حتى ينسى أن فوق قدرته قدرة الله، أو يقرأ المصيبة فوضى، أو ينظر إلى التاريخ كصراع أسباب صماء، أو يحبس الحكم فيما انتهت إليه الدنيا. وليس المطلوب أن تنعدم رهبة الضرر الطبيعية، بل ألا تتحول إلى خوف تعبدي يذل القلب للمخلوق، أو تحمله على معصية الخالق، أو تقطع رجاءه ممن بيده الملك كله.

الذي تنفذ مشيئته هو مالك الملك، والذي كتب المقادير لم يكتبها عبثًا، والذي تجري أيام التاريخ في ملكه سيجمع الخلق إليه. فلا سلطان يعلو على سلطانه، ولا مصيبة تخرج عن علمه وكتابه، ولا حق يضيع لأن الدنيا أغلقت صفحته قبل أن يُستوفى.

قال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: 5].

لا تجمع الآية بين حقيقتين متباعدتين: ملكه الآن، ورجوع الخلق إليه بعد الموت؛ فالرجوع نفسه من تمام الملك. ما يتقلب في الدنيا لا يفلت من سلطانه، وما يبقى ناقصًا في أحكام الناس يستوفى عنده، وما خفي سببه أو تأخر جزاؤه يسير إلى يوم لا يملك فيه أحد شيئًا إلا بإذنه.

وحين يستقر هذا في القلب يضيق سلطان اليد التي يراها، ويأنس برب لا يغيب عنه شيء. يرى السلطة عاريةً مستردة، والمصيبة واقعةً في علم سابق، والتاريخ أيامًا يتعاقب فيها الأخذ والإنجاء، ثم يرفع بصره إلى

يوم يرجع فيه الجميع إلى مالك يوم الدين. عندئذ لا يبدو العالم أحداثًا مبعثرة، بل ملكًا يجري تحت تدبير الحكيم الرحيم.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾

حين يبدو السلطان أكبر من حجمه

قد يخرج العبد من صلاته إلى باب ينتظر منه رزقًا أو قرارًا، فيقف قلبه كله عند توقيع إنسان أو موافقة مؤسسة أو حركة سوق. يراقب الهاتف، ويعيد الاحتمالات، ويخشى كلمة من صاحب نفوذ أكثر مما يخشى أن يساوم على طاعة ربه. في تلك اللحظة لا تكون مشكلته في اتخاذ السبب، بل في أن السبب تمدد في قلبه حتى حجب من يملك السبب وصاحبه وما في يده.

في هذا الموضع يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول دعاءً يرد الملك كله إلى صاحبه:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 26-27].

لم تقل الآية: يا ملكًا عظيمًا بين ملوك، قالت: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾. الملك نفسه ملكه: أصله، وأسبابه، ومدته، وآثاره. يعطي منه من يشاء وينزعه ممن يشاء، فلا يخرج سلطان بشري عن ملك الله، ولا يصير ما أعطاه الله لأحد ملكًا مستقلًا عنه. وما في يد المخلوق عارية ممتحنة؛ قد يرفع بها الحق، وقد يظلم، ثم يعود هو وما ملك إلى مالك الملك.

وإيتاء الملك لا يعني محبة كل من أُعطيه، ولا رضاه عن كل ما يصنع به. فقد يعطي الله الملك كونًا ابتلاءً أو استدراجًا أو لإقامة مصالح يعلمها، كما يعطي الصحة والمال لمن يطيعه ومن يعصيه. فلا يجعل المؤمن اتساع السلطان شهادة رضا، ولا يجعل زواله وحده شهادة سخط؛ الميزان الشرعي في الإيمان والطاعة والعدل، والملك الدنيوي صورة من صور الامتحان.

وكذلك العزة والذلة. قد يعلو إنسان في أعين الناس وهو عند الله مهين، وقد يضيق على مؤمن في الدنيا وهو عزيز بطاعته. الآية تثبت أن العزة والذلة بيد الله، لكنها لا تسلم مقاييسهما للألقاب والقصور والجماهير. العزة الكاملة له، ومن طلبها بطاعته أعزه بما شاء، أما من طلبها بمعصيته فقد يملك المظهر ويخسر الحقيقة.

بيدك الخير

تجيء العبارة في قلب تقلب الملك: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾. الذي ينزع كما يعطي، ويخفض كما يرفع، لا يفعل عبثًا ولا يخرج فعله عن الحكمة. الخير كله بيده، ولا يُضاف إليه شر محض؛ فأفعاله كلها قائمة على العلم والحكمة والعدل والفضل. وقد يقع الشر في بعض مفعولاته من جهة ما فيها من ألم أو معصية، وهو داخل خلقه ومشيئته، لكنه لا يحبه شرعًا ولا يأمر به.

لهذا لا يضطر المؤمن إلى أن يختار بين الإيمان بقدرة الله والإيمان بحكمته. الذي يملك تقلب الملك والسلطان يملك تعاقب الليل والنهار، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، والرزق بغير حساب. وضعت الآيتان تقلب السلطة داخل تقلب الكون كله؛ لتمنعا القلب من أن يرى يد البشر ضخمة، ويرى فعل الله بعيدًا.

حين يطول ليل من الظلم، لا يقول المؤمن إن الليل صار مالكًا للزمان. وحين ينفتح نهار من العافية، لا يقول إن النور ضمن البقاء. الذي يولج هذا في ذاك قادر على أن يبدل الأحوال، وحكمته قد تجعل التحول أسرع مما يتوقع الناس أو أبطأ مما يريدون. الواجب أن يعمل العبد للحق، وألا يعبد توقيته.

ذكر يقال بعد الصلاة

لم تترك السنة معنى الملك في مقام التأمل العام. كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دبر الصلاة:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». صحيح البخاري (844)، وصحيح مسلم (593).

يخرج المصلي من بين يدي ربه إلى عالم الأسباب بهذا الميزان: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا ينفع صاحب الحظ والمال والسلطان حظه من الله. لا يلغي الذكر السعي ولا يجعل الأسباب وهمًا، لكنه ينزع منها دعوى الاستقلال. تسأل من بيده العطاء، وتأخذ بسبب أذن فيه، ولا تهين نفسك عند باب مخلوق كأن رزقك أو عزك خُلق في يده.

وبعد أن يردد هذا الذكر، قد يعود إلى الطلب نفسه ويطرق السبب نفسه، لكنه لا يعود إليه بالقلب نفسه؛ فقد ردّ العطاء والمنع إلى رب واحد، وعرف أن المال والجاه والقوة تقف كلها عند حد لا تتجاوزه: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ومن كان أمره بيد الله لم يحتج أن يذل قلبه لمن لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذنه.

ومن عرف مالك الملك لم يصبح سلبيًا أمام الظلم ولا متملقًا للسلطان. يقوم بما أوجب الله من عدل ونصيحة وأخذ بالأسباب، لكنه لا يبيع دينه خوفًا من مخلوق، ولا يتجاوز حدود الشرع باسم مقاومته. قلبه محرر من عبودية الصعود والسقوط؛ يعرف أن المملكة التي تملأ الشاشة اليوم لم تخرج عن ملك الله لحظة واحدة.

وإذا كان تقلب الممالك في يده، فما يقع في نفسك وبيتك وجسدك ليس خارجًا عن علمه وكتابه. قد يتبدل مشهد العالم كله أمام الناس، وقد تتبدل حياة إنسان واحد في مكالمة قصيرة؛ وكلاهما لم يفاجئ مالك الملك.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾

الخبر الذي يصل قبل استعدادك

قد يأتي الاتصال في ساعة عادية، ثم تنقسم الحياة في شعور الإنسان إلى ما قبل الخبر وما بعده. تشخيص مرض، أو فقد عزيز، أو خسارة لم يحسبها، أو باب أُغلق بعدما علق به قلبه. في اللحظة الأولى تضيق الرؤية حتى تبدو الواقعة كأنها خرجت للتو من فوضى لا يعلمها أحد، أو كأن الله علم بها بعد أن وقعت كما علم بها العبد.

يواجه القرآن هذا الوهم بخبر سابق على كل حادثة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22-23].

دخلت مصائب الأرض والأنفس جميعًا تحت الكتاب. لا حادثة فاجأت علم الله، ولا ألم خرج من ملكه، ولا شيء استجد عليه بعد جهل. كتب ذلك قبل أن يبرأ الخليقة، وكتابته تابعة لعلمه الكامل. والعبد مع هذا يريد ويفعل ويحاسب على اختياره؛ فلا الكتاب يجبره، ولا اختياره يخرجه عن مشيئة ربه.

ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ما يعجز العقل عن إحصائه لا يعجز علم الله ولا كتابه. ملايين الوقائع، وما يتصل بكل واحدة من أسباب ونتائج وقلوب وأعمال، معلومة مكتوبة. وما أصابك لم يقع في زاوية منسية من الكون؛ علمه ربك قبل أن تعلمه، وكتبه قبل أن توجد، ولم تنفلت لحظتك المؤلمة من ملكه لحظة واحدة.

لكيلا تأسوا ولا تفرحوا

صرحت الآية بوظيفة هذا العلم: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. لم يذكر القرآن القدر ليغلق باب السؤال أو يصنع جدلًا ذهنيًا، بل ليقيم القلب بين طرفين يفسدانه: حزن يبتلع العبد حتى يعترض ويعطل، وفرح يتضخم حتى يختال وينسب الفضل إلى نفسه.

ليس المراد منع الحزن الطبيعي؛ فقد حزن الأنبياء وبكوا، ولا منع الفرح بالنعمة؛ فقد أمر الله بالفرح بفضله ورحمته. المنفي حزن ينسى أن الفائت لم يكن ليخطئك، وفرح بطر يجعل العطية دليل استحقاق ذاتي. الإيمان بالكتاب لا يحول الإنسان حجرًا؛ يجعله إنسانًا يتألم من غير أن يضيع، ويفرح من غير أن يتكبر.

حين يفقد، يعلم أن ربه عرف الفقد قبل أن يعرفه، وأنه صار بعده مكلّفًا بعبودية جديدة لم تكن مطلوبة منه على هذه الصورة قبله. وحين يُعطى، يعلم أن العطية أتته من خارج ذاته، فلا يقف أمام الناس مختالًا بما لم يخلق أسبابه. فينقص سلطان اللحظة؛ فلا تصير المصيبة تعريفه الكامل، ولا تصير النعمة شهادة أبدية على منزلته.

احرص واستعن ولا تعجز

جاءت السنة فجمعت العمل والإيمان بالقدر في حركة واحدة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». صحيح مسلم (2664).

بدأ الحديث بما يحبه الله: قوة المؤمن في إيمانه وعزمه وعمله. ثم قال: احرص؛ فلا مكان للتواكل. واستعن بالله؛ فلا مكان لعبادة الجهد. ولا تعجز؛ فلا تجعل القدر ستارًا للكسل. فإذا وقع ما لم ترده بعد بذل السبب، أغلق باب «لو» التي تعيد الماضي لتقيم فيه محكمة لا تنتهي، وقال: قدر الله وما شاء فعل.

هذه الجملة لا تقال قبل العمل لتبرير تركه، بل بعد وقوع ما لا يمكن رده لتمنع القلب من أن يأكله التحسر. وفيها افتقار عجيب: تحرص بكل ما تستطيع، ثم تعترف أن الاستطاعة نفسها لا تستغني عن معونة الله. وتقبل ما وقع لا لأنك أحببت الألم، بل لأنك عرفت من قدره.

كتاب لا يغلق باب الدعاء

قد يتوهم بعض الناس أن ما دام كل شيء مكتوبًا فلا معنى للدعاء أو العلاج أو التخطيط. وهذا قلب للمعنى؛ فالأسباب نفسها من قدر الله. الدعاء مكتوب، والدواء مكتوب، والنجاة بهما مكتوبة إن شاءها الله. أنت لا تخرج بالدعاء من القدر، بل تنتقل بقدر إلى قدر، وتطيع ربًا كتب النتائج وكتب لها أسبابًا.

لهذا يجتمع في المؤمن هدوء القلب وحركة الجوارح. يراجع الطبيب، ويعيد الحساب، ويطلب حقه، ويستشير، ويجتهد؛ لكنه لا يحمل على كتفيه دعوى التحكم في الغد. فإذا جاءت النتيجة على غير ما أراد، لم يقل إن الكون خانه؛ قال: وقع ما علمه ربي وكتبه، وعلي الآن عبودية جديدة.

وقد تكشف المصيبة صلة كانت تحجبها كثرة الأسباب. كان العبد يظن أنه يستند إلى أشياء كثيرة، فإذا سقط بعضها وجد أن باب ربه لم يسقط؛ يسمعه حين تضيق عبارته، ويراه حين لا يراه الناس، ويؤجره على صبر لا يعرف مقداره. وفي الوقت نفسه يتعلم أن الكتاب لا يتبدل لرغبة أحد، وأن العبودية ليست امتلاك الغد، بل الصدق مع الله في اليوم الذي أعطاه.

وما يراه الفرد في سنوات عمره قد تراه أمة في قرونها: يطول البلاء حتى يبدو كأنه نظام العالم، ثم يأتي يوم تنكشف فيه هشاشة ما ملأ الأبصار. لهذا أمر الله موسى أن يوقظ في قومه ذاكرة لا تسجل أفعال البشر وحدها، بل ترى أيام الله.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾

بين قبضة فرعون وشاطئ النجاة

كان بنو إسرائيل يرون قوة فرعون كل يوم: جنودًا، وذبحًا للأبناء، واستحياءً للنساء، وإذلالًا ممتدًا حتى صار القهر جزءًا من صورة العالم. تربت أجيال وهي ترى السوط أقرب من النجاة، حتى صار الطغيان في الحس كأنه قدر لا يتحول.

ثم وقفوا بين البحر وفرعون. أمامهم ماء لا طريق فيه، وخلفهم جيش يعرفون بطشه، فقال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾. لم ينكر موسى قرب الخطر، لكنه رأى ما غاب عنهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 61-62]. وبعد لحظات صار البحر طريقًا للمستضعفين وموضعَ هلاكٍ لمن قال: أنا ربكم الأعلى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 5-7].

أيام الله هي الوقائع التي تظهر فيها نعمه ونقمه وآياته ظهورًا يوقظ القلوب. لم يأمر موسى قومه أن يذكروا تاريخهم بوصفه سلسلة بشرية مغلقة؛ ذكّرهم بفعل الله: أنجاكم، وابتلاكم، ووعدكم بالزيادة إن شكرتم. فالتاريخ في القرآن لا يخفي الفاعلين البشر، لكنه لا يمنحهم استقلالًا عن رب العالمين.

وختمت الآية الأولى بـ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. قراءة التاريخ بالله تحتاج الصبر والشكر معًا. الصبر يمنع طول البلاء من أن يتحول إلى يأس، والشكر يمنع النجاة من أن تتحول إلى غفلة وغرور. من صبر ولم يشكر قد يثبت عند الشدة ثم ينسى المنعم عند الفرج، ومن شكر بلا صبر قد يحسن الحديث عن النعم ويضطرب عند أول تأخير.

حين يطول الإمهال

حين تتأخر نهاية الظلم، يميل الإنسان إلى أحد خطأين: أن يظن أن الله ترك العالم لأهله، أو أن يحدد من عنده موعدًا ووعدًا خاصًا ثم ينسبه إلى الله. القرآن يرفض الغياب والتكلف معًا. الله يدبر، ويمهل، ويأخذ، وينصر، لكننا لا نملك أن نحول السنن العامة إلى تنبؤات تفصيلية لكل حادثة معاصرة.

نقرأ قصص القرآن كما فسرها الوحي: نعلم أن فرعون أُخذ بكفره وطغيانه، وأن قوم نوح وعادًا وثمود عوقبوا بما بينه الله، وأن المؤمنين نُصروا في مواطن سماها القرآن. أما واقعة عصرنا المعينة، فلا نجزم أنها عقوبة مخصوصة أو وعد حتمي بالنصر في وقت بعينه بلا دليل. نستخرج العبرة، ونزن الأعمال بالشرع، ونعمل، ولا نتكلم عن الله بغير علم.

وهذا الحد لا يبرد اليقين؛ بل ينقيه. اليقين ليس أن تعرف جدول الغيب، بل أن تعرف رب الغيب. قد لا تعرف متى تتبدل الأحوال، لكنك تعرف أنها لا تملك نفسها. وقد لا تدرك الحكمة الخاصة في كل منعطف، لكنك تعرف أن التاريخ لا يسير خارج ملك الحكيم.

يملي ولا يهمل

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]. صحيح البخاري (4686)، وصحيح مسلم (2583).

يفرق الحديث بين الإمهال والإهمال. قد يطول للظالم زمن الحركة، فيظن أن قدرته نجاة، ويرى المظلوم طول المدة فيكاد يظن أن الحق ضاع. لكن الإملاء نفسه داخل التدبير، فإذا جاء الأخذ لم تكن القوة التي ملأت الأبصار قادرة على الإفلات.

يسمع المظلوم هذا الخبر فيعلم أن طول المدة لم يخرجه من نظر ربه، ويسمعه الظالم فيعلم أن القوة التي وسعت له الحركة لا تملك أن تفتح له باب الإفلات. ويبقى المؤمن مأمورًا بالعدل والعمل والصبر؛ فلا يستعجل وعدًا لم يعين الله وقته، ولا يجعل قضيته العادلة مبررًا للكذب والعدوان.

ذاكرة تصنع عبودية

التذكير بأيام الله ليس احتفالًا بالماضي؛ هو تربية للحاضر. من نسي يوم النجاة ظن أن الأسباب أنقذته، ومن نسي يوم الأخذ هاب الظالم أكثر مما ينبغي، ومن نسي ابتلاء النعمة أساء استعمال الفرج. الذاكرة الإيمانية تعيد كل حدث إلى ربه، ثم تسأل: ماذا أراد منا من شكر وصبر وطاعة؟

ولا يكفي أن يُسأل: ماذا فعل الله بهم؟ بل ماذا كشف يومه في قلوبهم؟ قوم رأوا البحر ينفلق ثم احتاجوا إلى أن يتعلموا الشكر، وأمم رأت الآيات ثم أعرضت. فالمشكلة ليست دائمًا قلة الخوارق؛ قد يرى الإنسان أثر القدرة، ثم يعود قلبه إلى عادته إن لم يتحول الخبر إلى عبودية.

ومن عرف أيام الله أحب ربًا ينجي ويهدي، وعظم ربًا يأخذ ولا يفلت، ووثق بأن التاريخ لا يسقط من يده، وافتقر إليه لأنه لا يملك أن يصنع النصر ولا أن يحفظه بعد وقوعه. غير أن كثيرًا من قصص الدنيا ينتهي في الظاهر قبل أن يستوفى الحق، وهنا لا يكفي التاريخ وحده. لا بد من يوم يرجع فيه الجميع إلى مالك يوم الدين.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

المعنى الذي يعيد وزن الدنيا

مرت هذه الآية في اللقاء الأول مع الفاتحة، يوم اجتمعت الربوبية والرحمة والملك قبل العبادة والاستعانة. وتعود هنا لتكشف وجهًا آخر: الآخرة تمام معنى الملك. ما نراه في الدنيا ملكًا محدودًا بالأسباب والآجال، يظهر يوم الدين تحت سلطان لا ينازعه أحد.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4].

الدين هنا الجزاء والحساب. والله مالك كل الأيام، لكن تخصيص يوم الدين يكشف سقوط دعاوى الملك التي حجبت الحقيقة في الدنيا. كان للناس أموال وأوامر وجنود وشفعاء يظنون أنهم يملكون بها، فإذا جاء ذلك اليوم لم تملك نفس لنفس شيئًا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 19].

لم ينشأ ملك الله في ذلك اليوم؛ كان له الملك قبل خلقهم. لكن الحجب تزول، ويظهر للخلق ما كانوا ينسونه أو ينازعون فيه. الواحد القهار هو الملك، ولا مال ولا نسب ولا سلطة تنشئ لصاحبها حقًا على الله.

أنا الملك، أين ملوك الأرض؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». صحيح البخاري (4812)، وصحيح مسلم (2787).

نثبت لله ما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم من القبض واليمين على الوجه اللائق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل. والحديث لا يعرض مشهدًا للتخويف المجرد؛ يهدم في القلب تضخم المخلوق. الأرض التي اقتتل الناس على أجزائها في قبضته، والسماوات مطويات بيمينه، ثم يسأل سؤال تقريع: أين ملوك الأرض؟

كم من إنسان باع دينه خوفًا من اسم سيغيب، أو ظلم ليحفظ كرسيًا سيتركه، أو تعلق بقوة لم تستطع أن تحفظ صاحبها من الموت. يوم الدين يحرر المؤمن قبل أن يأتي؛ يجعله يزن الموقف بما يبقى عند الله، لا بما يصفق له الناس ساعة.

لكن جلال المشهد لا يعني أن الرجوع إلى مجهول قاس. الذي يقبض الأرض هو الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذي حرم الظلم على نفسه، وكتب الرحمة، وفتح التوبة. الحساب حساب الملك الذي لا يظلم، والعبد يرجع إلى رب عرفه في الدنيا، لا إلى قوة بلا أسماء ولا صفات.

من أحب لقاء الله

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**».

ولما ذُكرت كراهية الموت بيّن صلى الله عليه وسلم أن المؤمن إذا بُشر برضوان الله وكرامته أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه. صحيح البخاري (6507)، وصحيح مسلم (2683).

ليس معنى الحديث حب الألم أو تمني الموت؛ فالنفوس تكره مفارقة الدنيا بطبعها. إنما يكشف ما يقع عند البشارة، حين يرى المؤمن أن ما أمامه خير مما خلف، وأنه مقبل على رب أحبه وعبده ورجاه. لم يعد الرجوع عندئذ حقيقة بعيدة يخافها فحسب، بل لقاء يستعد له قلب أحب ربَّه.

ذلك الرب الذي عرفه في الفاتحة ربًّا للعالمين ورحمنًا رحيمًا، وعرفه حيًّا قيومًا، عليمًا سميعًا بصيرًا، غفورًا ودودًا، عزيزًا حكيمًا، ومالكًا لا يضيع عنده شيء؛ هو الذي سيلقاه. لا يذهب المؤمن إلى مجهول، بل إلى من كان يسمع دعاءه في الخفاء، ويستر زلته، ويفتح له باب التوبة، ويحفظ عليه عملًا نسيه الناس.

وحين تلوح له كرامة الله، تصغر الأشياء التي كان يظن أن فراقها نهاية كل شيء. تبقى المحبة للأهل والدنيا، ويبقى ألم الرحيل، لكن وراء الفراق قربًا لا يشبه قربًا، ورضوانًا لا يعقبه سخط، ودارًا لا يخاف فيها زوال النعمة. لهذا يحب لقاء الله حين يبشر بما عنده؛ لأنه أحب الله قبل أن يأتي يوم اللقاء.

وهذه المحبة نفسها تصدقها الاستعدادات: يرد العبد المظالم، ويتوب، ويخاف الحساب. فالحب الذي لا يغير العمل دعوى، والخوف الذي يقطع الرجاء جهل بمن يرجع إليه العبد. وهكذا يسير المؤمن إلى ربه بين محبة تشتاق، وهيبة تحاسب، ورجاء يتعلق بالرحمة.

حين تنتهي أحكام اللحظة

يوم الدين يعيد وزن كل قصة. مظلوم مات قبل أن يسمع حكمًا ينصفه، وطائع لم يعرف الناس عمله، وعاصٍ ستره جاهه، ومصلح خسر في الظاهر، ومغرور خرج من الدنيا ممدوحًا؛ كلهم يرجعون إلى مالك

لا يخفى عليه شيء. عنده لا تنفع الصورة على حساب الحقيقة، ولا يضيع عمل لأن صاحبه لم ير ثمرته في الدنيا.

هذا لا يجعل المؤمن يحتقر الدنيا؛ فهي موضع الزرع والأمانة. لكنه يرفض أن يجعل حكمها نهائيًا. النجاح الذي يبعده عن الله خسارة وإن لمع، والخسارة التي تحفظ دينه ليست الهزيمة كلها، والقرار الذي لا يراه أحد سيظهر في صحيفة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.

ومن عاش مع ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ صار أصدق في الخلوة؛ لأن الحكم سيصدر ممن علم سره. وصار أعدل مع الناس؛ لأنه سيقف معهم بين يدي ملك واحد. وصار أزهد في التصفيق والذم؛ لأن أصوات اللحظة لا تملك مصيره. وصار أشد افتقارًا؛ لأنه لا ينجو بعمله مجردًا، بل برحمة الله مع صدق الإيمان والعمل.

يظهر أثر هذه المعرفة قبل القرار، لا بعده فقط: حين يواجه العبد صاحب سلطان، أو يفتح خبرًا يخشاه، أو يسمع حكمًا عاجلًا على قصة لم تنته. يأخذ بالأسباب ولا يعبدها، ويقاوم الظلم دون أن يتوهم أن القوة خرجت من ملك الله، ويتلقى المصيبة وهو يعلم أنها لم تفاجئ علمه، ويقرأ التاريخ من غير أن يدّعي علم الغيب، ويزن حكم اللحظة بيوم الدين. عندئذ يصير الإيمان بالملك ميزانًا يحفظ القلب وهو يعمل.

ولكن القلب قد يردد هذه الحقائق ثم يعيش على خلافها: يقر بأن الملك لله، ويخشى المخلوق خوفًا يفسد طاعته، ويؤمن بالرجوع، ثم يزن أيامه بميزان العاجلة وحدها. هنا ينكشف الفرق بين معرفة مرت على اللسان، ومعرفة أعطت الله من التعظيم والمحبة والخشية ما يليق بالعبد أن يحمله في قلبه. والسؤال ليس: كم اسمًا عرفت؟ بل: ماذا تغيّر في خوفك ورجائك واختيارك لأنك عرفت ربك الذي سمّى نفسه بها؟

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67].

وإذا استقر أن الملك لله وأن الرجوع إليه، لم يعد ذكر الآخرة وعيدًا منفصلًا عن المحبة. من أحب الله أحب لقاءه على الوجه الذي يرضيه، واستعد له من غير تَمَنٍّ للموت ولا فرار من واجب الحياة. يعمل ويعمر ويصلح، وقلبه لا يجعل الدنيا وطنه الأخير؛ يشتاق إلى رضا ربه ورؤيته في الدار الآخرة كما دلت على ذلك النصوص، ويخشى أن يقدم عليه بقلب أعرض بعد أن عرف. بذلك يجتمع الشوق والاستعداد، والرجاء والمحاسبة.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

قد يعرف الإنسان أسماءً كثيرة، ويحسن الحديث عن التوحيد والقدر والرحمة، ثم تأتي لحظة عابرة فتكشف أن ما استقر في اللسان لم يبلغ القلب كله: رسالة من صاحب نفوذ تربك طاعته، أو ذنب يخلو به فيغفل عن نظر الله، أو بلاء يتأخر فرجه فيتحول حسن عبارته إلى اعتراض خفي، أو نعمة تفتح له فيكبر في عينه قدر نفسه. لم ينكر الله بعقله، لكنه عاش بعض يومه كأن المخلوق أقدر، أو كأن الله أبعد، أو كأن علمه ورحمته وحكمته لا أثر لها في هذا الموضع.

وهذا أدق خطرًا من الجهل المجرد؛ لأن صاحبه قد يطمئن إلى صحة ما يحفظ، فلا يرى الفجوة بين إقراره وحاله. ولم يأت القرآن ليزيده تعريفات فحسب، بل ليضع معرفته تحت الاختبار: هل عظّم الله كما عرّف بنفسه؟ ماذا ظن به حين أحاط به الخوف؟ وماذا صنعت المعرفة في خشيته وعبادته؟

لا يحيط مخلوق بالله علمًا، ولا يؤدي حق عظمته كما يليق بجلاله. لكن الله عرّف عباده من أسمائه وآياته بما تقوم به معرفتهم وعبادتهم، وأمرهم أن يعظموه ويعبدوه على هدى ما أنزل. ويبقى سؤال لا تحسمه كثرة الصفحات: ماذا بقي من المعرفة حين خاف القلب، أو خلا، أو تأخر عنه ما يحب؟

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

حين يبقى الإقرار ولا يبقى التعظيم

لو سُئل كثير ممن عبدوا غير الله: من خلق السماوات والأرض؟ لما نسبوها إلى أصنامهم. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25].

لم ينف القرآن عنهم كل معرفة؛ أثبت لهم إقرارًا، ثم حكم بأن أكثرهم لا يعلمون. عرفوا الخالق، لكن المعرفة لم تستوف حقها في القلب؛ فلم تمنعهم من صرف عبادة لغيره، أو منحه من التعظيم والرجاء التعبدي ما لا يكون إلا لله. وقالوا عن معبوداتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: 3].

لم تكن المشكلة أن الله غاب عن ألسنتهم، بل أن قدره نقص في قلوبهم حتى احتاجوا — بزعمهم — إلى وسائط يتقربون بها بعبادة لم يأذن بها. وحين يُعطى المخلوق حقًا خالصًا لله، لا يشفع لصاحبه أنه يقر بأن الله أعلى وأعظم؛ فالشرك لا يشترط أن يساوي العبد بين الخالق والمخلوق في كل شيء، بل يكفي أن يصرف لغير الله شيئًا من العبادة التي لا يستحقها إلا الله.

وقد يكون النقص دون الشرك الأكبر: رياءً، أو تعلقًا مذمومًا، أو خوفًا طبيعيًا يتجاوز حده حتى يحمل صاحبه على ترك واجب أو فعل محرم، أو تعظيمًا للمخلوق يتجاوز قدره. فلا تُسوّى المراتب، ولا يُحكم على

معيّن بالكفر لمجرد التشابه أو الانفعال، فلهذا الحكم شروط وموانع يرجع فيها إلى العلم وأهله. لكن أصل الخلل واحد: أن يحتل المخلوق في القلب موضعًا لا يناسب ضعفه، لأن معرفة العبد بربه لم تعمل في تلك اللحظة كما ينبغي.

الأرض جميعًا قبضته

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

لم تجب الآية عن نقص التعظيم بجدل طويل؛ نقلت العين إلى مشهد تسقط فيه المقاييس التي ضخمتها الدنيا. الأرض كلها — بجبالها ومدنها وجيوشها وحدودها وأجيالها — قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه. نثبت لله القبضة واليمين كما أثبتهما لنفسه، على الوجه اللائق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل. وما نعرفه من ألفاظ الصفات حق، أما كيفيتها فلا يحيط بها عقل مخلوق.

جاءت الآية بعد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعبد الله مخلصًا، وبعد ذكر الخسران والشرك والإنابة، ثم ختمت المشهد بالتنزيه: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. فالتعظيم ليس انفعالًا مبهمًا أمام الكون؛ إنه إفراد لله، وتنزيه له، وانكسار يمنع القلب أن يجعل مع مالك الأرض والسماوات ندًا في العبادة أو الحكم أو الخوف أو الرجاء.

ولا تعني جملة ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أن العبد قادر على الإحاطة بالله أو أداء حق جلاله كاملًا؛ فالله أعظم من أن يحيط به خلقه. معناها أن هؤلاء لم يعظموه التعظيم الذي دلت عليه آياته، ولم يعرفوه المعرفة التي تمنع شركهم واعتراضهم. أما المؤمن فيزداد علمًا بقدر ما يبلغه الوحي، ويزداد معه اعترافًا بأنه لا يحيط بربه علمًا، فيجتمع في قلبه نور المعرفة وذل العجز.

أنا الملك

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ». فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. صحيح البخاري (4811)، وصحيح مسلم (2786).

الحديث لا يفتح باب تخيل الكيفية، بل يغلق باب قياس الخالق على المخلوق. نثبت ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء، وننزّه الله عن المماثلة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وما يبدو للإنسان في الدنيا هائلًا — سماوات، وأرضون، وخلق لا يحصيهم — لا يعظم على قدرة الله ولا يعجزه، ولا يستقلُّ بشيءٍ من أمره، بل هو قائم بأمره، مفتقر إليه في وجوده وبقائه.

حين يستقر هذا المعنى، تتغير أحجام الأشياء في القلب. لا يزول خوف الإنسان الطبيعي من قوة تؤذيه، ولا يترك الأسباب؛ فالتوكل عمل قلب مع قيام الجوارح بما أذن الله فيه، لا دعوى تبرر العجز أو التفريط. لكنه لا يمنح السبب هيبة تنسيه مسبب الأسباب. القرار الذي ينتظره ليس خارج ملك الله، والمرض الذي يخشاه لا يعجزه، والذنب الذي ستره عن الناس لم يخف عليه. وعند كل ضغط يسأل نفسه: هل حملني خوفي على ترك واجب أو ارتكاب محرم؟ هل صار رجائي في السبب أكبر من رجائي في ربِّي؟ فكلما ضخّم القلب مخلوقًا حتى باع لأجله طاعة، أو سكت عن حق، أو يئس من فرج، احتاج أن يعود إلى هذه الآية: الأرض جميعًا قبضته.

الجلال الذي يفتح باب القرب

قد يتوهم القلب أن استحضار هذا الجلال يدفعه بعيدًا، كأن عظمة الله تعني أن العبد أصغر من أن يسمع دعاؤه. لكن الذي وسع ملكه السماوات والأرض هو الذي قال لعباده: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، والذي لا يعجزه شيء يعلم السر وأخفى، ويفرح بتوبة عبده، ويرحم ضعفه. كمال عظمة الله لا يحجبه عن دعاء عبده، ولا تشغله كثرة الخلق عن سماع واحد منهم. وإنما يقع الوهم حين يقيس القلب رب العالمين على ملوك البشر الذين تشغلهم كثرة الرعية ويحتاجون إلى الحُجَّاب والوُسَطاء.

كلما عرف العبد جلال ربه، ازداد افتقارًا إليه لا فرارًا منه. إلى من يذهب الضعيف إلا إلى القوي؟ وبمن يستغيث المملوك إلا بمالكه؟ ومن الذي يؤمنه إذا خاف، ويستر عليه إذا تاب، ويحفظ رجاءه إذا انقطعت وجوه الخلق؟ ليس الأنس بالله غفلة عن عظمته؛ إنه سكون القلب إلى رب عظيم يسمع من دعاه، ويقبل من تاب، ولا يظلم أحدًا، ويقضي لعبده بما تقتضيه حكمته.

ونقص التقدير لا يبقى فكرة خفية إلى الأبد. تأتي ساعات تنزع عن القلب لغته المرتبة، فيخرج ما كان مستترًا وراءها. عند الخوف الشديد، وطول الانتظار، وتأخر النصر، يظهر ما يظنه العبد بربه حقًا.

﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾

الخندق الذي كشف القلوب

لم يكن يوم الأحزاب درسًا هادئًا في حسن الظن. جاءت الجموع من فوق المؤمنين ومن أسفل منهم، وبلغت القلوب الحناجر، واضطربت الأبصار، وطال الحصار والبرد والجوع. وصف القرآن اللحظة بلا تجميل:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10-11].

الخوف نفسه لم يكن نفاقًا، المؤمنون زُلزلوا، وبلغت قلوبهم الحناجر. البلاء لا يحول الإنسان حجرًا، ولا يُطلب من الصادق أن ينكر ما يجده في جسده ونفسه. لكن اللحظة الواحدة أخرجت من القلوب ظنونًا مختلفة. قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

ورأى المؤمنون الجموع نفسها فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

لم يختلف الفريقان في وجود الخندق والجيش، بل في معرفة من يدبر وراء المشهد. المنافق جعل تأخر الفرج تكذيبًا للوعد، والمؤمن رأى الامتحان داخل الوعد نفسه، لأن الله لم يعدهم طريقًا بلا ابتلاء، بل أخبرهم أن تمسَّهم البأساءُ والضراءُ ويُزلزلوا حتى يأتي النصر. المعرفة الصحيحة لا تنكر شدة الواقع، لكنها تمنع الواقع من أن يكون المفسر الوحيد لفعل الله.

ما سوء الظن بالله؟

قال سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: 6].

سوء الظن بالله ليس خاطرًا عابرًا يكرهه العبد ويدافعه، ولا حزنًا على فقد، ولا سؤالًا صادقًا يطلب الفهم. قد تمر بالقلب وساوس فيردها الإيمان، وقد يتألم المؤمن ويشكو إلى ربه، كما شكا الأنبياء. إنما الخطر أن يستقر في القلب تصور يقدح في علم الله أو حكمته أو رحمته أو صدق وعده: أن يظن أنه يضيع إيمان أهل طاعته وأعمالهم، أو يخلف وعده، أو يمنع عبثًا، أو لا يقبل توبة الصادق، أو أن الظالم أفلت من ملكه، أو أن الخير لا يأتي إلا بالطريق الذي رسمه العبد.

وقد يظهر سوء الظن في القنوط، ويظهر في الأمن أيضًا. القانط يظن أن رحمة الله لا تبلغ ذنبه مع صدق التوبة، والآمن يظن أن سعة الرحمة تسمح له بالإقامة على المعصية بلا خوف. وكلاهما لم يجمع ما جمعه الوحي: رحمة تفتح الباب، وحكمة تضع الأمور مواضعها، وعدل لا يسوي بين المصر والتائب، ومشيئة لا يفرض العبد عليها صورة الإجابة.

ويظهر سوء الظن حين يربط الإنسان ثقته بالله بنتيجة واحدة: إن شُفيت فهو رحيم، وإن أُعطيت فهو كريم، وإن جاء النصر في الوقت الذي حدده صدق الوعد في نظره. فإذا جرى القدر على غير الصورة التي اختارها، تبدلت ثقته. هذه ليست معرفة بالله كما عرّف نفسه، بل صورة اشترطتها الرغبة ثم جعلتها ميزانًا لحكمة الرب ورحمته.

أنا عند ظن عبدي بي

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي**». صحيح البخاري (7405)، وصحيح مسلم (2675).

ليس الحديث إذنًا للخيال أن يصنع من الله ما يحب، ولا وعدًا بأن تقع للإنسان كل صورة يتفاءل بها. حسن الظن معرفة مبنية على ما أخبر الله به عن نفسه: يظن به أنه يغفر لمن استغفر وتاب، ويجيب من دعاه بما تقتضيه حكمته، ولا يظلم، ولا يخلف وعده، ولا يضيع عمل عامل، ويعلم ما يصلح عبده وإن خفي عليه.

قد يذكر العبد ربه في ليل لا يسمعه فيه أحد، وتعجزه العبارة عما في صدره؛ لكن حاجته لا تضيع بين الكلمات. الذي ذكره يعلم حاله قبل أن ينطق، ويسمعه حين يخفض صوته، ويهديه ويؤيده بما تقتضيه حكمته. ليس مضطرًا أن يرفع صوته ليبلغ بعيدًا، ولا أن يصوغ دعاءه صياغة العالم؛ يكفي أن يصدق في الالتجاء إلى من يعلم ما لم يستطع قوله.

وهنا يذوق القلب معنى لا تختصره العبارة: أن يكون العبد ضعيفًا وربه لا يعجزه شيء، وأن يضيق صدره وربه يعلم السر وأخفى، وأن ينساه الناس ولا يخفى على الله منه شيء. يذكر ربه فيحظى بالمعية التي أخبر بها في الحديث، لا لأن العبد استحق ذلك بقوته، بل لأن الله فتح له باب الذكر والقرب والافتقار.

ثم تأتي ثمرة هذا الظن في العمل. من رجا المغفرة صدق في التوبة، ومن وثق بالإجابة أكثر من الدعاء، ومن أيقن بالرزق طلبه من الحلال، ومن عرف الحكمة سلّم بعد بذل السبب. أما من أقام على التفريط ثم سمّى أمانيه حسن ظن، فقد جمع إلى المعصية جهلًا بمعنى الرجاء.

حين لا تأتي الإجابة في الصورة التي أردت

قد يطول دعاء عبد لولد أو شفاء أو فرج، ويأتي الليل بعد الليل ولا يرى الباب قد فتح. هنا ينكشف: هل كان أنسه بالله قائمًا على عطية بعينها، أم على معرفة ربه ومحبته؟ ليس المطلوب أن يتوقف عن سؤال ما يحب، فقد أمره الله بالدعاء، وإنما أن يبقى قلبه مؤمنًا بأن ربه يسمع ويعلم، وأن تأخير المطلوب لا ينفكُّ عن حكمته ولا عن سعة رحمته.

وقد تكون الإجابة بإعطاء المطلوب، أو بصرف سوء، أو بادخار الأجر، على ما جاءت به السنة، وقد يقع للعبد خير آخر لا يحيط به. ولا يملك الإنسان أن يجزم بالحكمة الخاصة في حادثته بلا دليل؛ لكن ما يملكه أعظم من التخمين: يعلم أن دعاءه لم يخف على الله، وأن وعد الإجابة حق، وأن خفاء وجهها عنه لا يحول الحكيم إلى عابث ولا الرحيم إلى ظالم لعبده.

ولذلك كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أن يربط آخر العمر بحسن الظن. قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ**». صحيح مسلم (2877).

عند انقطاع الأسباب كلها، يبقى ما عرفه القلب عن ربه. يرى العبد تقصيره فلا يغتر، ويرى رحمة الله فلا يقنط، ويقبل عليه بقلب يجمع الانكسار والرجاء. حسن الظن في تلك الساعة ليس نسيانًا للحساب؛ إنه الثقة بأن الذي سيحاسبه هو الذي فتح له التوبة، وكتب الرحمة، ولا يظلم مثقال ذرة.

ويظل السؤال قائمًا: كيف نعرف أن المعرفة بلغت القلب، وأن حسن الظن لم يبق كلامًا جميلاً؟ يضع القرآن محكًا لا يقاس بكثرة المصطلحات، بل بما يحدث للعبد حين يعرف: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

حين يتحول النظر إلى خشية

لم تأت آية الخشية في فصل مجرد عن العالم، بل بعد مطر ينزل، وثمرات مختلفة الألوان، وجبال جدد بيض وحمر وغرابيب سود، وناس ودواب وأنعام مختلف ألوانها. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 27-28].

العالم يرى ما يراه غيره، لكنه لا يقف عند اللون والشكل والقانون؛ يرى علمًا وحكمةً وقدرةً وإنعامًا. وكلما اتسعت معرفته بآيات الله، ازداد إدراكه لفقره وعظمة ربه. لذلك لم يقل القرآن: إنما يتكلم عن الله العلماء، ولا: إنما يجمع الأسماء العلماء؛ جعل الخشية ثمرةً ظاهرة للعلم، والخشية الصادقة لا تنفصل عن محبة الله ورجائه والافتقار إليه.

والخشية خوف يقوم على معرفة. ليست فزعًا مبهمًا من مجهول، ولا يأسًا يطرد صاحبه من باب الله. العالم يخشى الله لأنه عرف عزته وقدرته وحكمه، ويرجوه لأنه عرف مغفرته ورحمته. ولهذا ختمت الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾؛ عزة تمنع القلب أن يأمن مكره، ومغفرة تمنعه أن يقنط. فإذا انفرد الخوف حتى قطع الرجاء، أو انفرد الرجاء حتى أسقط الهيبة، نقصت صورة المعرفة.

ولا تجعل الآية اللقب وحده معيارًا؛ فالعالم في كمال المدح هو من أورثه علمه خشية. ولغير المتخصص من الخشية بقدر ما عرف من ربه، كما أن من كثرت محفوظاته ولم يظهر على قلبه وعمله أثرها قد حمل علمًا لم يستوف ثمرته. لا يعني هذا نفي العلم الشرعي عنه بإطلاق ولا الحكم على باطنه، لكنه يكشف نقص العلامة التي جعلها القرآن من دلائل المعرفة النافعة.

أمن هو قانت آناء الليل

في السورة نفسها التي قالت: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67]، عرض القرآن صورة العلم وهو يعمل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

لم تظهر المعرفة هنا في مجلس الكلام، بل في ليل لا يراه فيه جمهور: سجود وقيام، حذر من الآخرة، ورجاء لرحمة الرب. جمع العابد بين الجلال والجمال من غير أن يسميهما؛ خاف فقام، ورجا فاستمر، وأحب ربه فاختار مناجاته حين نام الناس، وأنس بالوقوف بين يديه من غير دعوى مقام ولا استغناء عن رحمته.

هذه الآية لا تجعل قيام الليل وحده مقياسًا لكل إنسان؛ فالعبادات تتفاوت، والواجبات مقدمة، والأعمال بحسب القدرة. لكنها تكشف أصلًا: العلم الصادق يَشُقُّ طريقَه إلى الجوارح. قد يظهر في صلاة، أو أمانة، أو ترك حرام في خلوة، أو رحمة بضعيف، أو رد مظلمة. فإذا لم يغير العلم اختيارًا واحدًا، احتاج صاحبه أن يسأل: أين يقف ما عرفته من قلبي؟

أعلمهم بالله وأشدهم له خشية

عن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فرخّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فحمد الله ثم قال: «**فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**». صحيح البخاري (6101).

أقام النبي صلى الله عليه وسلم رابطة صريحة بين العلم بالله والخشية، لكنه في الوقت نفسه رد الغلو الذي ظنه أصحابه زيادةً في الدين. الخشية الصحيحة لا تجعل العبد أعبد من رسول الله بطريقة تخالف سنته، ولا تحرم ما أحل الله طلبًا للورع، ولا تحول التدين إلى عنف على النفس والناس. كلما ازداد العبد معرفة بالله، ازداد اتباعًا لمن كان أعلم الخلق به وأخشاهم له.

وهذا يحرر الخشية من الصورة القاسية. كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية، وكانت خشيته مقرونة بالرحمة، وحسن العشرة، والرجاء بربه. لم تجعله معرفته بالله منقطعًا عن سنن الفطرة، بل عبد الله بالصلاة والراحة، والصيام والفطر، والرحمة والحزم. والخشية التي تمحو الرحمة أو تحمل على مخالفة هديه ليست ثمرة معرفة مكتملة.

كما تحرر الخشية من مراقبة الناس. قد يترك الإنسان معصية أمام الخلق حياءً منهم، ثم يفعلها إذا أغلق الباب؛ فهذا لم يستحضر علم الله وسمعه وبصره في موضع الاختبار. وقد يجتهد في عمل ظاهر ثم يهدمه بطلب المدح. العارف لا يستغني عن مجاهدة هذه الآفات، لكنه كلما تذكر من يراه ويسمعه، عاد من نظر الخلق إلى نظر الله.

أن تعرف من تعبد

المعرفة التي تصير عبادة

لا تحمل نفسك شعورًا مصطنعًا، ولا تدّع خشيةً ومحبةً لا تجدها. الأصدق: أن تأخذ ما عرفت إلى الله. قد يهم بمعصية ثم يتذكر أن الله بصير، فيتركها حياءً من ربه. يضيق رزقه فيأخذ بالأسباب، ويمنع

نفسه من الحرام لأنه عرف مالك الملك. يخطئ فيعود، لأنه عرف الغفور الرحيم. تنزل به مصيبة لا يفهم حكمتها، فيحزن ويبكي ويسأل، لكنه لا يتهم الحكيم ولا يدعي معرفة ما لم يبيّنه الله.

وهكذا تدخل المعرفة في تفاصيل لا يراها الناس. تخف وحشة الخلوة؛ لأن من يسمعه إذا ناداه قريبٌ مجيب لا يغيب. ويقل افتتانه بالثناء؛ لأن الذي يعلم سريرته لا تخدعه الصورة. ولا يعود الحب معنى يذكره في المواعظ فقط؛ يحب ربه لما عرف من كماله، ويرى في كل هداية فضلًا، وفي كل ستر رحمة، وفي كل باب توبة دعوةً إلى أن يقترب بالطاعة والإنابة.

ومع كل خطوة يدرك أنه لم يستغن بما عرف. يحتاج إلى الله ليحفظ قلبه من النسيان، ويحوّل العلم إلى عمل، ويقبل العمل بعد وقوعه، ويغفر ما خالطه من نقص. حتى محبته وخشيته ليستا شيئًا يملكه العبد ويضمن دوامه؛ هما نعمتان يسأل ربه أن يثبتهما ويزيدهما.

حين تعود إلى الصلاة

قد تنتهي القراءة، وتبقى الغرفة كما كانت: لا تنشق السماء أمامك، ولا تسمع صوتًا جديدًا، ولا يتغير كل شيء في لحظة. لكن أثرًا واحدًا يكفي ليفتح الطريق: أن تقوم إلى وضوئك بقلب يعرف أمام من سيقف، ومن يحب ويرجو ويهاب، وإلى من يرفع فقره كله.

يرفع يديه في الصلاة ويقول: الله أكبر. أكبر من الخوف الذي صحبه، ومن الذنب الذي أثقله، ومن المدح الذي أغراه، ومن السبب الذي ظنه مالكًا لمصيره. ثم يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فلا تمر الكلمات هذه المرة على قلب غريب؛ يعرف الرب الذي يحمده، والرحمن الذي يرجوه، ومالك يوم الدين الذي سيعود إليه.

ثم يصل إلى العهد الذي لا تغني عنه معرفة بلا عمل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

إياك نعبد: فنحبك ونذل لك ونعظمك، ولا نعطي غيرك حقك. وإياك نستعين: فلا نتكل على عبادتنا ولا على معرفتنا بك. منك بدأ الهدى، وبك يثبت، وإليك يرجع العبد بما علم وما عمل، راجيًا أن تقبل منه، وتغفر تقصيره، وتزيده معرفةً ومحبةً وخشية.

وحين يقول في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، يظهر صدق المعرفة: هل صارت معرفته عهدًا يحكم قلبه واختياره، أم بقيت أخبارًا صحيحة يعرفها ولا تقوده؟

وأقوى أثر لهذه المعرفة ليس كثرة العبارات التي تُحفظ، بل أن يتبدل موضع الله في القلب: أن يصير أحب إليه من كل محبوبٍ يعصي اللهَ لأجله، وأرجى عنده من سبب انقطع، وأعظم من قوة أخافته،

وأقرب إلى دعائه من كل باب. والعلامة ليست انفعال ساعة القراءة، بل ما يتغير حين يعود الامتحان نفسه: هل تُركت معصية كان صاحبها يسوّغها؟ وهل ثبت في طاعة كان يؤخرها؟ وهل بُذل السبب من غير أن يُعبد؟ فإذا ازداد في الطاعة حبًّا لا إعجابًا بالنفس، وفي الخوف رجاءً لا قنوطًا، وفي النعمة شكرًا لا غفلة، وفي البلاء افتقارًا لا اعتراضًا، فقد عملت المعرفة في موضعها.

إذا حدث شيء من ذلك، فقد بدأت المعرفة تؤدي حقها. وإذا رأى العبد النقص، لم يستسلم لليأس؛ عاد إلى من عرفه غفورًا رحيمًا، وقال بقلب عبد لم يجد لنفسه غنى عن ربه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

الملاحق

كيف تواصل معرفة الله مع القرآن؟

إذا فتحت مقطعًا من القرآن فاسأل: ماذا عرّف الله به نفسه هنا؟ وما الوهم الذي يصححه؟ وما الحق الذي يطلبه من العبد؟ وكيف تتحول هذه المعرفة إلى رؤية وعبادة؟ ثم جرّب هذه الأسئلة بنفسك؛ فالمراد أن تصير قراءة القرآن بابًا متجددًا لمعرفة الله وعبادته، لا أن تبقى المعاني حبيسة الصفحات.

لا تجعل هذا التدريب إذنًا للاستغناء عن التفسير أو الجزم بكل خاطر. ابدأ بالنص، واقرأ سياقه، وارجع إلى تفسير معتبر، وفرّق بين المعنى الصريح، واللازم الصحيح، والتأمل التربوي المحتمل. وما لم يثبت اسمًا لله فلا تسمِّه به، وما خفيت حكمته الخاصة فلا تدّع علمها.

المقطع المختار

قال إبراهيم عليه السلام وهو يبرأ من معبودات قومه ويعرّفهم برب العالمين: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: 78–82].

اقرأ قبلها قول إبراهيم لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 75–77]، واقرأ بعدها دعاءه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي

﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: 83]. فالمقطع ليس قائمة نعم معزولة؛ إنه براءة من المعبود الباطل، وتعريف برب العالمين، ثم دعاء يخرج من المعرفة.

الخطوة الأولى: ماذا عرّف الله به نفسه هنا؟

اكتب الأفعال كما جاءت قبل أن تستخرج أثرها: خلقني، يهدين، يطعمني ويسقين، يشفين، يميتني ثم يحيين، وأطمع أن يغفر لي. ستجد أن المقطع يجمع بداية الوجود، وهداية الطريق، وإمداد الجسد، ورفع الضر، ونهاية الحياة، والبعث، والمغفرة يوم الدين. ليس العبد أمام ربٍّ يتصل بجانب ديني ضيق من حياته؛ هو مع رب العالمين في أصل خلقه وطعامه ومرضه ومصيره.

لاحظ أن النص عبّر بالأفعال ولم يسرد أسماءً؛ فلا تشتق من كل فعل اسمًا لم يثبت في الوحي. لكنك تعرف من الأفعال صفات الكمال التي دلت عليها النصوص الأخرى: القدرة والعلم والرحمة والحكمة. وتبقى ألفاظ القرآن هي الحاكمة، لا ما يستحسنه القارئ من تسميات.

الخطوة الثانية: ما الوهم الذي يصححه المقطع؟

يصحح وهم المعبود الذي يُقصد ولا يملك خلقًا ولا هدايةً ولا رزقًا ولا شفاءً ولا بعثًا ولا مغفرة. ويصحح وهم استقلال الأسباب: الطعام يصل بأيدٍ وأعمال، والشفاء قد يجري بدواء وطبيب، لكن إبراهيم ردّ النعمة والشفاء إلى ربها الأعلى من غير أن ينفي الأسباب التي خلقها الله. ويصحح وهم أن صلة العبد بربه موسمية؛ فالرب حاضر في البداية والوسط والنهاية.

ومن دقة العبارة قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، فنسب المرض إلى نفسه أدبًا، ثم قال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾. لا نبني على هذا وحده قاعدة تنفي نسبة المرض إلى قدر الله؛ فالقرآن يثبت أن كل شيء بقدره. وإنما نتعلم أدب الخطاب مع بقاء الاعتقاد الصحيح.

الخطوة الثالثة: ما الحق الذي يطلبه من العبد؟

السياق بدأ بالبراءة من المعبودات، فحق هذه المعرفة توحيد الوجهة: لا يُطلب ما لا يقدر عليه إلا الله من غيره، ولا يُعلّق القلب بسبب كأنه مستقل. ثم يأتي الشكر على الخلق والهداية والرزق والشفاء، والتسليم للموت والبعث، والافتقار إلى المغفرة. وكل فعل من هذه الأفعال يفتح عبادةً تناسبه: هداية تُسأل، ورزق يُشكر، وشفاء يُرجى، وموت يُستعد له، ومغفرة تُطلب بتوبة صادقة.

الخطوة الرابعة: كيف تتحول المعرفة إلى رؤية وعبادة؟

حين تجوع لا ترى الطعام شيئًا وصل وحده، بل رزقًا ساقه الله عبر أسباب. وحين تمرض لا تجعل العلاج ندًّا للشفاء، ولا تتركه باسم التوكل؛ تأخذ به وتفتقر إلى الشافي. وحين تحتار لا تظن أن الهداية ثمرة ذكائك وحده؛ تسأل الذي خلقك أن يهديك. وحين تذكر الموت لا تراه سقوطًا في العدم، بل انتقالًا يعقبه إحياء ووقوف بين يدي مالك يوم الدين.

ثم يبلغ المقطع أرق مواضعه: نبيٌّ خليل يقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾. المعرفة لم تورثه أمنًا ولا دعوى استحقاق، بل طمعًا مقرونًا بانكسار. وكلما عظم علم العبد بربه، ازداد محبةً له ورجاءً فيما عنده، وافتقارًا إلى مغفرته، ولم يتكئ على عمله.

الآن اقرأ مقطعًا آخر بنفسك

اختر مقطعًا قصيرًا متصلًا، ولا تبدأ بآية مقتطعة من سياق طويل. اقرأ ما قبل المقطع وما بعده، ثم دوّن تحت أربعة عناوين: التعريف بالله؛ الوهم المصحَّح؛ حق الله على العبد؛ الأثر في الحياة والعبادة. بعد ذلك ارجع إلى تفسير معتبر، وصحح ما كتبت. فإن وجدت معنى لم يدل عليه النص، فاحذفه ولو كان مؤثرًا؛ فصدق المعرفة بالله أعظم من جمال الخاطر.

مقاطع مقترحة للتدريب: [القصص: 23–28] في الافتقار، والتدبير، والأخذ بالأسباب؛ [الأنبياء: 83–90] في الدعاء والرحمة والاستجابة؛ [النمل: 59–64] في دلائل الربوبية وإبطال الأنداد؛ [الزمر: 53–55] في الرحمة والتوبة والإنابة. اختر واحدًا، ثم طبّق الأسئلة عليه.

والعلامة الأصدق أن تفتح مقطعًا جديدًا، فتقرأه تحت سلطان الوحي لا تحت سلطان خاطرك، ثم تخرج منه بمعرفة صحيحة وعبادة صادقة. عندها لا تنتهي الفائدة بإغلاق الصفحات؛ لأن طريق التلقي صار معك.

دليل الأحوال: أين تقرأ حين...؟

هذا الدليل لا يجعل لكل حال اسمًا واحدًا يعالجها، ولا يحوّل مواضع الكتاب إلى وصفات سريعة. أحوال القلب مركبة، والقرآن يجمع من الأسماء والصفات ما يستقيم به التصور والعبادة. المقصود أن تبدأ من حالك، ثم ترجع إلى المواضع التي تعيدها إلى معرفة الله كما عرّف نفسه.

وإن لم تجد حالك مذكورة بعينها، فاختر مقطعًا قرآنيًّا يتصل بها، وطبّق عليه الأسئلة الأربعة، ثم راجع تفسيرًا معتبرًا؛ فيبقى الدليل بابًا إلى القرآن، لا قائمةً مغلقةً على الأحوال المذكورة.

حين يطغى الخوف من المستقبل

ارجع إلى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؛ «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؛ «إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى»؛ «فَإِنِّي قَرِيبٌ»؛ «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»؛ «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ»؛ «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ».

الحي القيوم، والتدبير، والمعية والسمع والبصر، والعزة والحكمة، والملك والقدر.

حين تتعطل الأسباب أو تسقط خطةٌ وثقت بها

ارجع إلى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؛ «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ»؛ «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؛ «مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟»؛ «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»؛ «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ».

القيومية، والخلق والأمر، والتدبير والرزق، ونفاذ المشيئة، وملك الأسباب ونتائجها.

حين تخاف على رزقك أو تُدعى إلى حرام لتحفظه

ارجع إلى: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»؛ «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؛ «مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟»؛ «وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»؛ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

الخالق والمدبر والرزاق، والنعمة، وصدق ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عند التعارض.

حين تُعطى وتخشى الغفلة أو الكبر

ارجع إلى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»؛ «مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟»؛ «وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»؛ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

الحمد، والخلق، والرزق والنعمة، وتعظيم المنعم بدل تعظيم النفس والعطية.

حين تذنب وتظن أن الباب قد أُغلق

ارجع إلى: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»؛ «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»؛ «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»؛ «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ»؛ «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

الرحمة المكتوبة، والنهي عن القنوط، والمغفرة مع شدة العقاب، وإرادة الله التوبة، وحسن الظن المنضبط.

حين يتكرر منك الذنب وتثقل عليك التوبة

ارجع إلى: «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»، «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»، «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ»، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

سعة الرحمة، وقبول التوبة، وأن ثمرة العلم عودة وعبادة لا دعوى كمال.

حين تتأخر إجابة الدعاء أو لا تأتي الإجابة في الصورة التي أردت

ارجع إلى: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»، «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ»، «فَإِنِّي قَرِيبٌ»، «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»، «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»، «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

التدبير، والسماع والقرب، والحكمة والمشيئة، وحسن الظن الذي لا يفرض على الله صورة بعينها.

حين تشعر أنك لا تُسمع أو لا يفهم أحد ما في صدرك

ارجع إلى: «يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى»، «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ»، «إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى»، «فَإِنِّي قَرِيبٌ».

علم السر، وسماع الشكوى، والسمع والبصر، وقرب الله من داعيه.

حين تخلو بمعصية أو تغريك خلوة لا يراك فيها الناس

ارجع إلى: «يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى»، «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ»، «إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى»، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

علم السر وأخفى، وسمع الله وبصره، والخشية التي تظهر حين يغيب نظر الخلق.

حين تُظلم ولا ترى للحق طريقًا

ارجع إلى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ»، «إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى»، «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»، «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ»، «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ»، «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ»، «وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ»، «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

السماع والبصر، والعزة والحكمة، ونفي الظلم، والملك والقدر وأيام الله والحساب.

حين يعلو سلطان البشر في قلبك

ارجع إلى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؛ «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ «أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ»؛ «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا»؛ «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»؛ «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»؛ «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ»؛ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

العلو والعظمة، والملك والعزة، وإبطال الأنداد، وأن المخلوق لا يخرج عن سلطان الله.

حين لا تفهم الحكمة في قدرٍ مؤلم

ارجع إلى: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؛ «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»؛ «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»؛ «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ»؛ «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

التدبير والحكمة ونفاذ المشيئة ونفي الظلم والقدر وحسن الظن، مع منع الجزم بالحكمة الخاصة بلا دليل.

حين يصيبك المرض أو تخشى الموت

ارجع إلى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؛ «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؛ «فَإِنِّي قَرِيبٌ»؛ «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»؛ «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»؛ «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»؛ «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ»؛ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»؛ «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

القيومية، والتدبير والقرب والرحمة، والقدر، وملك يوم الدين، وحسن الظن عند نهاية العمر.

حين تفقد محبوبًا

ارجع إلى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؛ «فَإِنِّي قَرِيبٌ»؛ «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»؛ «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»؛ «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»؛ «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ»؛ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

الحي الذي لا يموت، والقرب والرحمة، والحكمة والقدر، والرجوع إلى مالك يوم الدين.

حين يقسو قلبك عند قراءة القرآن

ارجع إلى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؛ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»؛ «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»؛ «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ»؛ «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

طريقة قراءة السياق، والمقاطع الجامعة، وتعظيم الله، وحسن الظن، والخشية ثمرة العلم.

حين تشعر بجفاف العبادة

ارجع إلى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»، «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»، «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، «فَإِنِّي قَرِيبٌ»، «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»، «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»، «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»، «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ»، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

الحمد ومحبة الكمال، والأسماء الحسنى، والنعمة، واستحقاق العبادة، والقرب والرحمة والتوبة، والعلم الذي يصير عبادة.

حين تتنازعك محبة الله ومحبة ما يخالف أمره

ارجع إلى: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»، «أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ»، «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا»، «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ»، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

استحقاق الله للعبادة، وإبطال الند، وتوحيد العهد، وتلقي الحكم، وتحول المعرفة إلى اتباع.

حين تخشى ألا يثبت قلبك

ارجع إلى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، «فَإِنِّي قَرِيبٌ»، «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»، «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»، «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ»، «وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ»، «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ»، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

الاستعانة، والقرب والرحمة والتوبة، والهداية، وحسن الظن والخشية، مع دعاء الثبات.

حين يفتنك علمك أو عملك الصالح

ارجع إلى: «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»، «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ»، «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»، «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ»، «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

حدود علم المخلوق، والأسماء الحسنى، والشكر، والاستعانة، وتعظيم الله، وحسن الظن والخشية.

حين تريد أن تحب الله أكثر

ارجع إلى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ»، «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»، «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»، «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، «فَإِنِّي قَرِيبٌ»، «كَتَبَ

عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»؛ «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ»؛ «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»؛ «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ»؛ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»؛ «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

تأمل كماله وإحسانه ورحمته وقربه ومغفرته، ثم اعبُدْه محبةً وتعظيمًا، وارجُ لقاءه.

لا تقرأ هذه الإحالات لتهدئة عابرة فقط. اقرأ الموضع حتى تعرف من هو الله في حالك، ثم اسأل: ما الاعتقاد الذي ينبغي تصحيحه؟ وما العبادة التي ينبغي أن أقوم بها الآن؟ قد تكون العبادة دعاءً، أو توبةً، أو ترك حرام، أو أداء حق، أو أخذ سبب، أو صبرًا يمنع الاعتراض، أو حمدًا يحفظ النعمة من أن تحجب المنعم.

دليل الأسماء والصفات والأفعال ومواضعها

تنبيه منهجي

هذا الدليل خادم للكتاب، لا معجمٌ مستوعب لأسماء الله وصفاته، ولا قائمة يراد بها الحصر أو العد. وهو يثبت ما عالجه المتن أو احتاج إليه، ويُحيل إلى مواضع ظهرت فيها الألفاظ والمعاني بوظائفها الأبرز. وقد يرد الاسم أو الصفة أو الفعل في مواضع أخرى لم تُذكر هنا؛ لأن الغرض الإرشاد إلى مواضع الاستعمال، لا إحصاء كل ورود.

ويفرّق الدليل بين ثلاثة أبواب: الأسماء الثابتة التي وردت بصيغة الاسم في القرآن أو السنة الصحيحة؛ والأوصاف والصفات الثابتة التي أخبر الله بها عن نفسه، ولا يلزم أن يُشتق من كل وصف اسمٌ مطلق؛ والأفعال الإلهية التي تعرّف بها النصوص في سياقات الخلق والتدبير والرحمة والحكم والقدر والجزاء. هذا التفريق يحفظ توقيفية الأسماء، ويمنع أن يتحول كل فعل أو خبر إلى اسم لم يسمِّ الله به نفسه.

أولًا: الأسماء والأوصاف الاسمية المركزية

الله

الاسم الجامع الذي تدور عليه المعرفة كلها. تبدأ به المقاطع الجامعة في الفاتحة وآية الكرسي وسورة الإخلاص وخاتمة الحشر: المسمى الواحد الذي تجتمع له الأسماء والصفات، والإله الحق الذي لا تُصرف العبادة إلا له، والذي يورث العلم به تعظيمًا وحسن ظن وخشية.

المواضع: «مِنْهُ نَعْرِفُهُ»؛ من «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» إلى «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ من «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» إلى «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»؛ ومن «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» إلى «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

الرب، رب العالمين

الربوبية تجمع معنى الخلق والتربية والملك والتدبير والرزق والإنعام، وتصل الخبر بالحمد والعبادة والتوكل. فلا تُقرأ بوصفها معلومة عن بداية الكون، بل تدبيرًا وقيّوميّةً دائمةً للرب في أمر العالم وحياة العبد.

المواضع: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ومقاطع ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ولا سيما من ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ و﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾؛ و﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

الرحمن، الرحيم

يجتمع الاسمان في الفاتحة وخاتمة الحشر، ثم تتسع دلالتهما في مواضع التوبة والإنابة والتشريع. إنهما يبنيان رحمة ثابتة بخبر الله، تفتح التوبة ولا تلغي الهيبة والحساب، وتظهر في تشريع يحفظ الضعيف ويبين ويهدي ويخفف.

المواضع: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ وخاتمة الحشر؛ ومقاطع ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ من ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ وتظهر صلة الرحمة بالعلم والقرب في ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

الحي، القيوم

الحي ذو الحياة الكاملة التي لا يسبقها عدم ولا يلحقها فناء، والقيوم القائم بنفسه المقيم لغيره. يجتمع الاسمان في آية الكرسي ليؤسسا افتقار الخلق الدائم، وينفيا السنة والنوم والغفلة والحاجة.

الموضع الرئيس: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

الأحد، الصمد

الأحد المتفرد الذي لا نظير له، والصمد الكامل المقصود في الحوائج، الغني عن خلقه المفتقر إليه كل ما سواه. تعمل سورة الإخلاص بهذين الاسمين مع نفي الولد والوالد والكفء لتقطع قياس الخالق على المخلوق.

الموضع الرئيس: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

عالم الغيب والشهادة

وصف اسمي قرآني يقرر إحاطة علم الله بما غاب وما شهد، وما استتر في الصدور وما ظهر في الأعمال. يرد في خاتمة الحشر ليحكم على السر والخفاء، ثم يُفَصَّلُ معنى العلم في «بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

المواضع: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

الملك

له الملك كله، لا ملكًا محدودًا كملك البشر. يقترن في خاتمة الحشر بالقدوس والسلام حتى لا يُقاس سلطانه على سلطان المخلوق، ثم يتسع في «لَهُ الْمُلْكُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ليشمل السلطان والقدر والتاريخ ويوم الدين.

المواضع: خاتمة الحشر؛ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾؛ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ ومقاطع ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

القدوس

المنزه عن كل نقص وعيب، فلا يدخل ملكه ظلم ولا جهل ولا عبث. جاء بعد الملك في خاتمة الحشر ليصحح ما تحمله الذاكرة البشرية من صور فساد الملوك.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، خاتمة سورة الحشر.

السلام

السالم من النقائص والآفات، ومنه السلام. يعمل اقترانه بالملك والقدوس على بناء سلطان كامل لا يشبه قهر المحتاج أو بطش الجاهل.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

المؤمن

ومن معاني اسم المؤمن التي ذكرها أهل العلم: أنه الذي يؤمّن عباده من ظلمه، ويصدق رسله بآياته، ويصدق وعده، ويشهد بالحق. يظهر في منظومة خاتمة الحشر مقترنًا بالمهيمن، فيجتمع الأمان والرقابة.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

المهيمن

الرقيب الشهيد الحافظ المحيط بخلقه. لا حركة تغيب عن هيمنته، ولا أمان يخرج عن سلطانه. يمهد مع اسم المؤمن لمعاني العلم والمراقبة والحفظ.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

العزيز

له العزة كلها، لا يُغلب ولا يمانع، ولا يخرج شيء عن ملكه. يرد في خاتمة الحشر، وفي مطلع غافر، ثم يُدرس اقترانه بالحكيم حتى لا تُفهم العزة على مثال طغيان البشر.

المواضع: خاتمة الحشر، ومطلع غافر عند ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾؛ و﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ومقاطع ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

الجبار

من أسماء الله في خاتمة الحشر، يدل على الجبروت والعلو والقهر ونفوذ الأمر على الوجه اللائق بجلاله، ولا يشبه تجبر المخلوق وظلمه. يرد ضمن الصورة الجامعة من غير استقصاء لمعانيه.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

المتكبر

المتعالي عن كل سوء ونقص، صاحب الكبرياء الحق. يقطع الاسم وهم مساواة الخالق بالمخلوق، ويختم سلسلةً من أسماء الجلال قبل التنزيه عن الشرك.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

الخالق

الذي أوجد كل ما سواه، فلا مادة ولا قوة ولا قانون يستقل عن خلقه. ويعود معنى الخالق من خاتمة الحشر إلى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ليبني الفرق الحاسم بين الخالق والمخلوق.

المواضع: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» في حجة العبادة.

البارئ

الموجد للخلق على ما شاء من التقدير والتمييز، ورد في خاتمة الحشر مقترنًا بالخالق والمصور. ويدل اقترانهما على أن الخلق فعل محكم متنوع، لا كتلة خرجت بلا تقدير.

الموضع الرئيس: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

المصور

الذي أعطى المخلوقات صورها وهيئاتها على وفق علمه ومشيئته وحكمته. يرد في خاتمة الحشر، ويتصل معناه بالمشيئة والحكمة وقبول العبد موضعه مخلوقًا.

المواضع: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» في سياقات الخلق والتصوير بالعزة والحكمة.

الحكيم

ذو الحكمة الكاملة في خلقه وأمره وجزائه، يضع الأشياء مواضعها ولا يعتري حكمه جهل ولا هوى. وليس الاسم ذريعة لإغلاق السؤال، لكنه يمنع جهل العبد ببعض الحكمة من أن يتحول إلى اتهام للرب.

المواضع: خاتمة الحشر، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ في رحمة التشريع، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ومقاطع ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، و﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ في تحرير حسن الظن وسوئه.

العليم

المحيط علمًا بما كان وما يكون، وبالظاهر والباطن. يرد في مطلع غافر مع العزيز قبل المغفرة والعقاب، ويظهر بصيغ العلم المتعددة في «بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وفي سياقات الخلق والرزق والحكم.

المواضع: خاتمة الحشر عند ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ومطلع غافر، ومقاطع ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

السميع، البصير

سمعه محيط بالأصوات كلها، وبصره محيط بالموجودات والأعمال، على الوجه اللائق بجلاله. وتظهر دلالة الاسمين في شكوى امرأة خفي صوتها، وفي رسولين أمام طاغية، وفي مراقبة العبد في خلوته.

المواضع: مقاطع ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، ولا سيما ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ و﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

اللطيف، الخبير

اللطف في سياق العلم يدل على نفاذ العلم إلى الدقائق، والخبرة على الإحاطة ببواطن الأمور وظواهرها.

يرد الاسمان في سياق ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**﴾ ليصلا الخلق بالعلم الدقيق.

الموضع الرئيس: «يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى».

الغفور

واسع المغفرة لمن تاب وأناب، ولا تعني مغفرته عجزًا عن العقوبة ولا جهلًا بحقيقة الذنب. يقترن معنى المغفرة بالرحمة وفتح باب التوبة، ويعود عند الحديث عن حسن الظن والخشية ليحفظ القلب من القنوط.

المواضع: من ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ إلى ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ في اقتران العزة بالمغفرة.

الوكيل

الحافظ المدبر القائم على خلقه. يأتي بعد عموم الخلق ليمنع تصور أن الخلق لحظة ماضية انفصل بعدها العالم عن ربه، ويأتي في سياق العبادة والتوكل.

المواضع: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ».

الرزاق

الذي بيده رزق الخلق، وقد أقام للأرزاق أسبابًا وأمر العباد بالسعي والأمانة. ويورث العلم به افتقار القلب من غير تعطيل للأسباب، ويحذر من جعل السوق أو الوظيفة رازقًا مستقلًا.

الموضع الرئيس: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟﴾؛ ويمهد له الخلق والتدبير في ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ و﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾.

مالك الملك

وصف قرآني في مقام الدعاء ورد الملك نفسه إلى صاحبه: أصله وأسبابه ومدته وآثاره. يهدم تضخم أصحاب النفوذ، ويثبت أن إيتاء الملك ونزعه ابتلاء وتدبير لا شهادة رضا مطلقة.

الموضع الرئيس: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ».

مالك يوم الدين

وصف قرآني يربط الملك بالجزاء، ويمنع أن تكون أحكام الدنيا خاتمة القصة. وهو يعيد معنى الفاتحة إلى النهاية: الرب الذي عرفه العبد في الدنيا هو الذي يلقاه ويحكم بين الخلق.

المواضع: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» في اللقاء الجامع؛ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» في كمال الملك والرجوع.

ثانيًا: الصفات والأوصاف الثابتة البارزة

الألوهية

استحقاق الله وحده غاية المحبة مع غاية الذل والتعظيم والعبادة. ولا تأتي الألوهية دعوى مجردة، بل نتيجة لما عرّف الله به من كماله وخلقه وربوبيته وإحسانه.

المواضع: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؛ ومقاطع ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الحياة الكاملة والقيومية

حياة لا يسبقها عدم ولا يلحقها فناء، وقيومية بها يقوم الخلق ولا يقوم الله بأحد. تثمر أمنًا وتوكلًا وافتقارًا، وتنفي السنة والنوم والغفلة.

الموضع: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

الأحدية والصمدية

تفرد الله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه، وغناه الكامل مع افتقار الخلق إليه. تحرران التصور من الشبيه والحاجة والأصل والفرع.

الموضع: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ».

العلم والإحاطة

يعلم الغيب والشهادة، والسر وأخفى، وما في الصدور، وما يقع في العالم قبل وقوعه. يثمر العلم مراقبةً من غير وسواس، وصدقًا في الخلوة، وثقةً بأن العمل والدمعة والمظلمة لا تضيع.

المواضع: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ «يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى»؛ «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ» في العلم السابق والكتاب.

السمع

يسمع الأصوات كلها على اختلاف اللغات والحاجات، ولا يشغله صوت عن صوت. وفي العلم بهذا إنصاف للصوت الضعيف، وإحياء للدعاء، واستحضار لمسؤولية الكلمة.

الموضع: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ».

البصر

يرى عباده وأعمالهم ومواقفهم، فلا يخفى عليه ظلم ولا طاعة ولا خوف. يقترن بالسمع في بناء المراقبة والثبات.

الموضع: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، مع امتداد المعنى في ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

العلو والاستواء على العرش

الله عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه كما أخبر، على الوجه اللائق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل، وعلوه لا ينافي إحاطة علمه بالسر وسماعه للدعاء.

المواضع: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ في سياق الخلق والأمر؛ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ في سياق العلم؛ ومطلع ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

المعية

معية عامة بعلمه وإحاطته، ومعية خاصة لأوليائه بالنصر والحفظ والتأييد. لا تعني الحلول والامتزاج، ولا تعفي من التكليف والأخذ بالسبب.

الموضع الرئيس: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

القرب والإجابة

قرب يليق بالله، يجتمع مع علوه وعظمته، ويظهر في دعاء العبد وسجوده. لا يحول القرب إلى ألفة تذهب التعظيم، ولا تحول العظمة إلى بعد يقطع الرجاء.

الموضع الرئيس: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

الرحمة

رحمة ثابتة كتبها الله على نفسه، وسبقت غضبه، ووسعت كل شيء، وتظهر في الدعوة إلى التوبة وفي البيان والتخفيف والتشريع. لا تُفهم منفصلة عن العدل والجزاء.

المواضع: من «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» إلى «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ».

المغفرة والعفو وقبول التوبة

يستر الله الذنب ويعفو، ويقبل رجوع العبد إليه. لا يصبح الماضي هوية أبدية إذا صدقت التوبة، مع بقاء حقوق الخلق ووجوب إصلاح ما يمكن إصلاحه.

المواضع: «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ» و«غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ»؛ «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ» في حسن الظن.

المحبة والفرح بتوبة العبد

ثبتت محبة الله لأهل الطاعة والتوبة، وثبت فرحه بتوبة عبده على الوجه اللائق بجلاله، من غير مماثلة لأفراح المخلوق المحتاج. تعمل هذه المعرفة على الحياء والمسارعة إلى الرجوع.

الموضع الأبرز: «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ».

العزة

كمال القوة والغلبة والامتناع، فلا يعجزه شيء ولا يرد أمره أحد. تُقرأ مقرونة بالحكمة حتى لا تحمل خبرات البشر الفاسدة إلى معرفة الرب.

الموضع الرئيس: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

الحكمة

كمال العلم ووضع الأشياء مواضعها وصدور الخلق والأمر والجزاء عن غاية محمودة. خفاء الحكمة الخاصة لا يقدح في كمالها، ولا يبيح للعبد اختراع حكمة جازمة بلا دليل.

المواضع: من ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾؛ و﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾؛ و﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

الإرادة والمشيئة

ما شاء الله كان، ولا يقع في ملكه ما لا يريد كونًا، مع التفريق بين ما يشاؤه كونًا وما يحبه ويرضاه شرعًا. لا تحول المشيئة الإنسان إلى متفرج، بل تبقي العمل والدعاء والتوبة داخل القدر.

المواضع: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾؛ «وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ» في الهداية؛ «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ» في تقلب الملك.

الحكم

له الحكم الكوني والشرعي والجزائي، وحقه أن يأمر وينهى ويحلل ويحرم. يتلقى العبد حكمه بالتسليم والفهم وطلب الدليل، من غير أن ينسب إلى الله حكمًا بغير علم.

الموضع الرئيس: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

العدل ونفي الظلم

لا يظلم الله مثقال ذرة، ولا يحمل نفسًا ذنب غيرها، ولا يضيع حسنة ولا حقًا. حرم الظلم على نفسه كمالًا وعدلًا وفضلًا، وجعل الخبر باعثًا للعبد على ترك ظلم الناس.

الموضع الرئيس: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

الملك والقدرة

له ملك السماوات والأرض، وبيده الخير، وهو على كل شيء قدير. لا يخرج السلطان البشري ولا المصيبة ولا التاريخ ولا الجزاء عن ملكه.

المواضع: مقاطع ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ولا سيما ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

الكتابة والعلم السابق

كتب الله المقادير والمصائب قبل وقوعها بعلم كامل، ولم تفاجئه حادثة. لا تلغي الكتابة إرادة العبد ومسؤوليته، ولا تغلق باب الدعاء والعمل.

الموضع الرئيس: «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ».

القبض واليمين والأصابع

صفات ثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة، نُثبت على الوجه اللائق بجلال الله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل. ويهدم العلم بها تضخم المخلوق، ويستحضر عظمة الملك، من غير فتح باب تخيل الكيفية.

المواضع: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»؛ «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

شدة العقاب وذو الطول

وصفان قرآنيان جاءا مع غفران الذنب وقبول التوبة. شدة العقاب تحرس الرجاء من الأمن، وذو الطول يفتح معنى الفضل والسعة والإنعام. لا يلزم من ورود الوصف اشتقاق اسم مطلق لم يثبت به النص.

الموضع الرئيس: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ».

الخشية التي تقوم على المعرفة

ليست صفة لله، بل الأثر الجامع لمعرفة العبد به، وأُدرجت هنا لأنها محك ثمرة العلم بالله. تجمع الهيبة والرجاء، وتظهر في الاتباع والعبادة والرحمة وترك المعصية في الخلوة.

الموضع الرئيس: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

ثالثًا: الأفعال الإلهية المركزية

عرّف بنفسه وأوحى إلى رسله

منه نأخذ خبر الغيب، وبوحيه تُضبط دلالة العقل والفطرة والكون. والسنة الصحيحة وحي مستقل الحجة، تأتي مبيِّنةً ومنشئةً للمعنى ومجسدةً له في مواضعه.

الموضع: «مِنْهُ نَعْرِفُهُ» ﴿مِنْهُ نَعْرِفُهُ﴾.

خلق وبرأ وصور

أوجد الأشياء من العدم، وميزها وصورها كما شاء. يثبت الفعل الفرق الذي لا يذوب بين الخالق والمخلوق، ويمنع إسناد الاستقلال إلى الطبيعة أو المادة أو التقنية أو النفس.

المواضع: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»؛ «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

أمر ودبر

له الخلق وله الأمر، ويدبر أمر العالم في الليل والنهار والحياة والتاريخ. لا تعني الأسباب غياب التدبير، ولا يعني التدبير إسقاط مسؤولية العبد.

المواضع: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» و«يُدَبِّرُ الْأَمْرَ».

رزق وأنعم

رزق الخلق، وأوصل النعم عبر أسباب جعلها وابتلى العباد في استعمالها. يثر الخبر سعيًا بلا عبادة للسبب، وحمدًا لا يقف عند اللسان.

المواضع: «مَنْ يَرْزُقُكُمْ؟» و«وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ».

أعطى ومنع وكشف الضر

العطاء والمنع وكشف الضر والرحمة بيده، ولا يستقل سبب بواحد منها. يدفع ذلك العبد إلى الأخذ بالأسباب مع بقاء القلب مع الله.

المواضع: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»؛ «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؛ «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ».

استحق العبادة وأمر بها

من عرّف نفسه ربًّا خالقًا مدبرًا رازقًا أمر أن يُعبد وحده. الحق لله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

المواضع: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، ولا سيما «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» و«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

أجاب المضطر وهدى في الظلمات وبدأ الخلق وأعاده

ترد هذه الأفعال في حجاج سورة النمل لتسقط دعوى الشريك: من لم يخلق ولم يدبر ولم يجب ولم يهد ولم يبدأ الخلق ويعده، فمن أين جاءه حق العبادة؟

الموضع: «أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ».

علم السر وسمع الشكوى ورأى الموقف

تنتقل الأفعال من باطن الإنسان إلى صوته ثم إلى موقفه أمام الطغيان، فتجمع المراقبة والعدل والثبات.

المواضع: من «يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى» إلى «إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى».

قرب وأجاب الداعي

أخبر عن قربه وإجابته لمن دعاه، وربط الدعاء بالاستجابة له والإيمان به. لا تُقاس الإجابة بصورة واحدة يفرضها العبد.

الموضع: «فَإِنِّي قَرِيبٌ».

كتب الرحمة على نفسه وسبقت رحمته غضبه

خبر إلهي يثبت الرحمة قبل تغير مشاعر العبد، ويصلها بالجمع والجزاء حتى يبقى الرجاء مسؤولًا.

الموضع: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

غفر وقبل التوبة وفرح بها

يفتح للمسرف باب الرجوع، ويقبل توبة الصادق، ويفرح بها على الوجه اللائق بجلاله. يثمر ذلك رجاءً يطلق القدم وحياءً يمنع التسويف.

المواضع: «لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ» و«غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ».

بيّن وهدى وتاب وخفف في الشرع

تظهر الرحمة داخل الأمر والنهي، لا في رفع التكليف فقط. يريد الله أن يبين ويهدي ويتوب ويخفف، مع حفظ حدود ما أحل وحرم.

الموضع: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ».

فعل ما يريد

مشيئته نافذة، ولا يعجزه ما أراد. لا يُقرأ الفعل منفصلًا عن العزة والحكمة، ولا يُتخذ ذريعة لترك العمل أو الاحتجاج بالقدر على المعصية.

الموضع: «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ».

حكم وشرع

رد الحكم إليه، وربطه في قصة يوسف بالتوحيد والعبادة والدين القيم. يدخل فيه حكمه الصادق وقضاؤه وتشريعه، مع ترك التفصيل السياسي والجدلي للبحوث المتخصصة.

الموضع: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

هدى من يشاء وصرف القلوب

هداية التوفيق وخلق الإيمان بيده، أما الرسول والداعية فلهم البيان والبلاغ. يرد الفعل العبد إلى الدعاء والافتقار، من غير تعطيل لأسباب الهداية.

الموضع: «وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ».

حرم الظلم على نفسه وحاسب على الأعمال

لا يظلم أحدًا، ويحصي الأعمال ثم يوفيها. ينقل الحديث القدسي الخبر من معرفة عدل الله إلى تحريم ظلم العباد بعضهم بعضًا.

الموضع: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

آتى الملك ونزعه وأعز وأذل

الملك عارية ممتحنة، لا شهادة رضا مطلقة. يقلب الله السلطان والعزة والذلة بحكمة، ويبقى الميزان الشرعي في الإيمان والطاعة والعدل.

الموضع: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ».

أولج الليل في النهار وأخرج الحي من الميت ورزق بغير حساب

جاءت هذه الأفعال مع تقلب الملك لتضع حركة السلطان البشري داخل تدبير الكون كله، وتمنع القلب من تعظيم يد البشر ونسيان فعل الله.

الموضع: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ».

كتب المصائب قبل أن يبرأها

ما أصاب في الأرض أو الأنفس داخل علم الله وكتابه. يثر الخبر اتزانًا في الحزن والفرح، ويجمع الحرص والاستعانة والرضا بعد وقوع ما لا يمكن رده.

الموضع: «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... إِلَّا فِي كِتَابٍ».

أنجى وأخذ وأملى للظالم

تظهر أيام الله في النجاة والأخذ والابتلاء. الإملاء ليس إهمالًا، وتأخر الأخذ لا يعني خروج الظالم من الملك، مع منع الجزم بتفسير كل حادثة معاصرة على أنها عقوبة مخصوصة بلا دليل.

الموضع: «وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ».

جمع الخلق وحاسب وجازى

الرجوع نفسه من تمام الملك. يظهر يوم الدين سقوط دعاوى السلطان، ولا يضيع عنده حق أو عمل خفي، ويصير اللقاء باعثًا على الاستعداد والمحبة والخشية.

الموضع: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

قبض الأرض وطوى السماوات بيمينه

مشهد يرد الممالك والحدود والقوى كلها إلى حجمها الحقيقي، ويمنع قياس صفات الخالق على صفات المخلوق.

المواضع: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» و«وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

ابتلى وكشف الظنون

في الخندق والأحزاب يكشف البلاء ما استقر في القلب من معرفة أو سوء ظن. لا يذم الخوف الطبيعي، وإنما يذم التصور المستقر الذي يقدح في علم الله أو حكمته أو رحمته أو صدق وعده.

الموضع: «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

أورث العلمَ خشيةً وهدايةً لمن صدق

والمحك الذي لا يُكتفى فيه بصحة المعلومة: هل صار العلم بالله خشية واتباعًا وعبادة؟ ليست الخشية غلوًا ولا قنوطًا، بل معرفة تعمل في القلب والجوارح.

الموضع: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية

سلسلة موازين القرآن — السلسلة الحالية

- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس